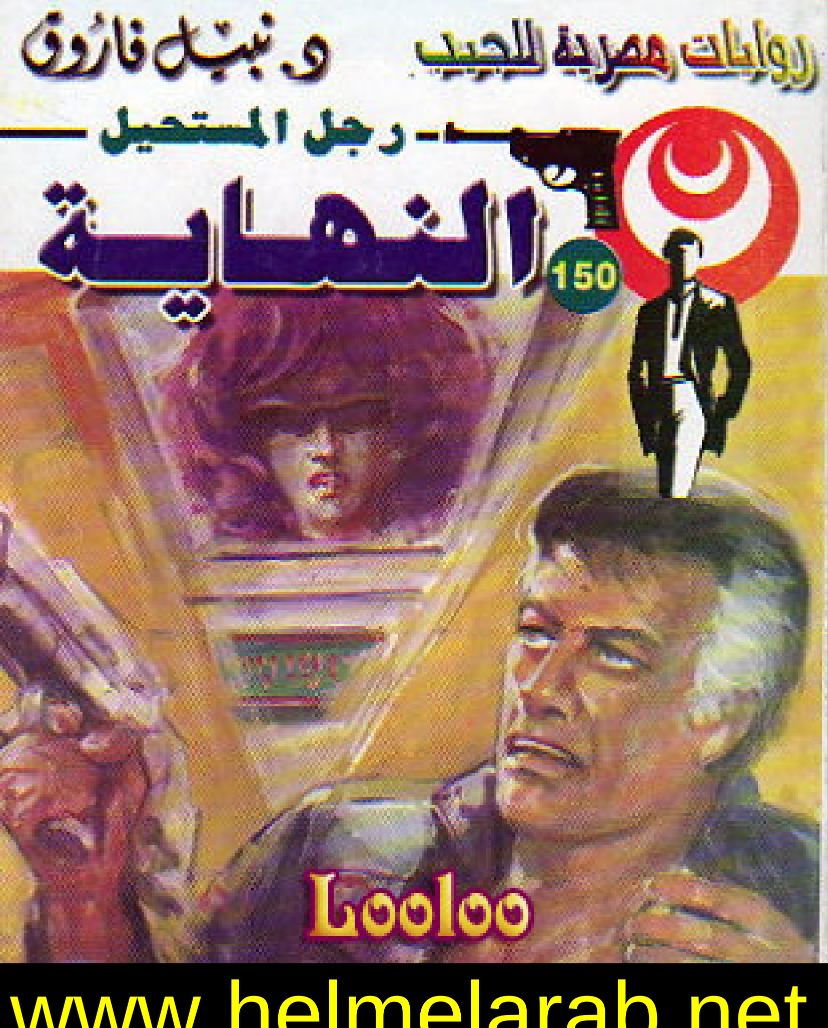

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
النهاية
150
Looloo

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- بريق الذهب..

على الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى ساعة متأخرة من الليل، إلا أن سيارة مدير المخابرات العامة المصرية عبرت بوابة مقر رياسة الجمهورية، وتوقفت فى المكان المخصص لها، قبل أن يغادرها المدير، وهو يسأل مندوب الرياسة فى اهتمام:

- هل أنهى سيادة الرئيس مقابلاته ؟!

أجابه المندوب فى سرعة، وهو يقوده إلى داخل المقر:

- سيادة الرئيس فى انتظارك يا سيدى الوزير، منذ طلبت مقابلته العاجلة.

تمتم مدير المخابرات، وهو يسير إلى جواره، عبر ممرات المقر، نحو حجرة الرئيس الشخصية:

- عظيم.. عظيم..

وفى حجرة مكتبه، نهض الرئيس يستقبل مدير مخابراته، ويدعوه إلى الجلوس، وهو يسأله فى اهتمام:

- ما تلك التطورات الخطيرة، التى حدثتنى بشأنها عبر الهاتف أيها الوزير ؟!

ناوله مدير المخابرات ملفاً صغيراً ، وهو يجيب :

- من الواضح أن المواجهة قد حدثت ياسيادة الرئيس .. فى الزمان والمكان غير المتوقعين ، ولكن المراقبين يؤكدون أن الأمر قد انحسم تماماً هناك .. فى قلب المحيط .

التقط الرئيس الملف ، وهو يقول فى اهتمام بالغ :

- انحسم ؟! أأنت واثق أيها الوزير ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجاباً ، وقال فى حزم :

- تمام الثقة ياسيادة الرئيس .

التقى حاجبا الرئيس ، وهو يطالع أوراق الملف فى اهتمام ، وذهنه يستعيد الأحداث كلها ..

ومنذ البداية ..

منذ ذلك المطلب الوقح ، الذى جرؤ الأمريكيون على تقديمه للإدارة المصرية ، لعزل (أدهم صبرى) من جهاز المخابرات العامة ..

المطلب ، الذى رفضه الرئيس بشدة ، واعتبره مساساً بالسيادة والكرامة المصرية ، و ...

وقبل أن تتطور الأمور ، وتحدث مواجهة مباشرة ، بين الإدارتين ، المصرية والأمريكية ، وجد الأمريكيون أنفسهم فى مأزق رهيب ..

فجأة ، وبدون مقدمات ، ظهرت زعيمة غامضة مجهولة ، نجحت بوسيلة ما ، فى كشف شفرة الأقمار الصناعية الدفاعية ؛ لتسيطر عليها ، وعلى مدفع ليزر فضائى قوى ، استخدمته لإثبات قوتها وسطوتها ، وراحت تنسف وتسحق به عدة أهداف بالغة الأهمية ..

وبالغة الخطورة ..

وفى الوقت الذى فقدت فيه الإدارة الأمريكية سيطرتها على الأمور ، وقبل أن تستعيد توازنها ، كانت الزعيمة الغامضة تملى شروطها ..

وفى صفاقة وقحة ، طلبت مائة مليار دولار من الماس النقى ، بشرط أن يقوم بتسليمها شخص بعينه ..

(أدهم صبرى) ..

شخصياً ..

وكان من المحتم أن يتنازل الأمريكيون عن مطلبهم الوقح ..

وأن يطلبوا تعاون المخابرات المصرية ، من خلال رجلها (أدهم صبرى) ..

وعلى متن مقاتلة أمريكية حديثة وفريدة ، انطلق (أدهم) عبر المحيط الأطلنطى ، فى طريقه إلى (واشنطن) .

ولم يكن من الممكن أن تسمح الزعيمة الغامضة بهذا أبدًا ..

وبخطة معقدة ، تم إسقاط مقاتلة (أدهم) ، ليأسره جيش الزعيمة الغامضة ، داخل غواصة رهيبة ، لا يمتلك مثلها الأسطول الأمريكى نفسه ..

وفى نفس الوقت ، الذى حصلت فيه الزعيمة على الماس النقى ، بقيمة مائة مليار دولار ، وبخطة عبقرية معقدة ، تعلن ذكاءها وقوتها فى آن واحد ، كان (أدهم) يسعى بكل قوته وخبرته ومهاراته ، للفرار من غواصتها ، وتكسير خطتها الجنونية ، للسيطرة على العالم أجمع ..

وبدأت الإدارة الأمريكية ، متمثلة فى الرئيس الأمريكى ، ووزير دفاعه ، ومدير مخابراته ، ومستشارة الأمن القومى ، تسعى لاستعادة السيطرة على الأمور بأى ثمن ..

ولكن ضربات الزعيمة وانتصاراتها توالت ..

وتوالت ..

وتوالت ..

وكإثبات لإحكام قبضتها على كافة الأمور ، أعلنت الزعيمة الغامضة مطلبها الجديد الخطير ..

مائة مليار دولار أخرى ..

ومن ذهب (فورت نوكس) هذه المرة ..

ولإخفاء ضعفها وضياع سطوتها عن الشعب الأمريكى ، راحت الإدارة الأمريكية تتورط أكثر وأكثر ، وتغوص فى مستنقع الفساد ..

وتغوص ..

وتغوص ..

حتى النخاع ..

لقد التزمت بعقد تبادل معلومات رسمى ، وقّعه الرئيس الأمريكى شخصيًا ، مع مستر(X) ، زعيم منظمة الجاسوسية

الإجرامية الكبرى ، والذى كادت الزعيمة تزيحه من الوجود تماماً ، مع بدايــة ظهورها ، عندما كشفت مقره السرى ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفتك به ..

وبمعاونــة مستر(X) ومنظمتـه ، وعلـى الرغـم مـن الاعتراض الشديد لمدير المخابرات الأمريكى ، دبَّرت الإدارة الأمريكية سرقة وهمية ، لذهب حصـن (فورت نوكس) ، الاحتياطى الاقتصادى للولايات المتحدة الأمريكية كلها ..

وانتشرت المعلومات عـن مصرع (أدهم صبرى) ، بعد فراره من غوَّاصة الزعيمة الغامضة ..

وكان من الضرورى أن تلجأ المخابرات المصريـة إلى الخطة البديلة ..

الخطة (ب) ..

وفى قلب الولايات المتحدة الأمريكية ، بدأ الفريق المصرى الاحتياطى عمله ..

(منى توفيق) ..

و (ريهام) ..

و (شريف) ..

والعبقرى ، ذو الأصابع الذهبية (قدرى) ..

ولأن الأمـور كلهـا تسير بإيقاع سـريع لاهـث ، راحـت الخيوط كلها تتشابك وتتعقد ، على نحو رهيب مخيف ..

مستر(X) أخبر مدير المخابرات الأمريكى ، أنه قد كشـف الهوية الحقيقية ، لتلك الزعيمة الغامضة ..

ومستشارة الأمن القومى ، خرجت على متن مدمرة ، من قطع الأسطول الأمريكى ، لتسليم شـحنة الذهـب الهائلـة للزعيمة ، فى منطقة حددتها هذه الأخيرة ، فى قلب المحيـط الأطلنطى ..

ووزير الدفاع الأمريكى أطلق كل قواته ، خلف الفريق المصرى الاحتياطى ، الـذى تعرَّض لهجوم رهيب عنيف ، مع فارق عددى وتسليحى هائل ، انتهى بسقوط الكل فى قبضة الأمريكيين ، وإصدار وزير الدفاع قراره بنقلهم جميعاً إلى معتقل (جوانتانامو) الرهيب ..

أما الزعيمة ، فقد وضعت خطة عبقرية ، للحصول على ذهب (فورت نوكس) ، فى سرعة تفوق كل التوقعات ..

رجالها دخلوا المدمرة من أسفل ، بوساطة قـاطع ليزرى قوى ، بعد أن ألصقوا بها ممراً صناعياً من غوَّاصتها ..

وبوساطة القواطع الليزرية المماثلة ، تمت إذابة الذهب ، داخل الصناديق المعدنية الهائلة ، وضخه إلى خزان خاص فى الغواصة ..

وكان هذا يعنى نجاحًا مذهلاً جديدًا ..

لولا عقبة واحدة ..

لقد ظهر (أدهم صبرى) ؛ لينفى بنفسه شائعة مصرعه ، وليخوض صراعًا عنيفًا جديدًا ، على الرغم من إصاباته ..

صراع أعاده إلى قلب الغواصة مرة أخرى ..

ولكن رجال الزعيمة ، ضخوا خلفه ذهب (فورت نوكس) المصهور ..

وتصاعدت أبخرة الذهب المصهور ، من تلك الفتحة ، فى قاع المدمرة الأمريكية ..

الفتحة التى تحول جانبها السفلى ، داخل غواصة الزعيمة ، والذى وثب إليه (أدهم) ، إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

من الذهب الخالص(*) ..

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الأربعة الأولى ، (المأزق) ، (القبضة) ، (النقطة ب) ، و (المصيدة) .. المغامرات أرقام (١٤٦) ، و (١٤٧) ، و (١٤٨) ، (١٤٩) .

ولم يكن الرئيس يعلم كل هذه التفاصيل ، إلا أن تقرير مدير المخابرات العامة ، كان ينقل إليه ما يكمل معلوماته ، حتى نقطة تتجاوز هذه الأحداث بعدة ساعات ؛ لذا فقد طالعه بمنتهى العناية والاهتمام ، و ...

وفجأة ، انطلق رنين الهاتف الخاص بمدير المخابرات ، فهبَّ هذا الأخير من مقعده ، وهو يلتقطه من جيبه ، قائلاً :

ـ اسمح لى يا سيادة الرئيس .

أشار إليه الرئيس قائلاً :

ـ بالتأكيد .

انتحى مدير المخابرات جانبًا ، حتى لايشتت تفكير الرئيس ، أو يقطع متابعته للتقرير ، وراح يتحدث مع مساعده فى اهتمام شديد ، قبل أن يعود إلى الرئيس بوجه شاحب ممتقع ، وهو يقول :

ـ سيادة الرئيس .. هل تسمح لى باستقبال تقرير عاجل وخطير للغاية ، على جهاز الفاكس الخاص بك .

أشار إليه الرئيس مرة أخرى ، وهو يرفع عينيه إليه ، فى شىء من القلق ، ولده صوته ، الذى نافس شحوب وامتقاع وجهه :

ـ افعل يا رجل .. افعل .

ألقى مدير المخابرات أمـرًا أخيرًا إلى مساعده ، وهو يتجه نحو جهاز الفاكس ، الذى بدأ عمله على الفور ، لينقل ذلك التقرير ، الذى وصفه بأنه عاجل وخطير للغاية ..

وفى لهفة متوترة ، اختطف مدير المخابرات ذلك التقرير ، فور انتهاء وروده ، وطالعه بوجه أكثر شحوبًا ، قبل أن يغمغم ، فى مزيج من الحزن والمرارة والأسى ، لم يعهده فيه الرئيس من قبل قط :

ـ مستحيل ! يا للخسارة ! يا للخسارة !

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يمد يده إليه ، قائلاً فى انزعاج واضح :

ـ ماذا هناك يا رجل ؟!

ناوله مدير المخابرات ذلك التقرير ، وبدا وكأن ساقيه تعجزان عن حمله ، فترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه ، فى حين لم يكد الرئيس يطالع التقرير ، حتى انتفض جسده كله ، وهتف فى انفعال :

ـ مستحيل !

انطلقت زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق مدير المخابرات ، وهزّ رأسه فى أسى وأسف ، قبل أن يدفن وجهه بين كفيه ، مغمغمًا :

ـ كنت أخشى هذا .. كنت أتوقّعه وأخشاه طوال الوقت .

صمت الرئيس بضع لحظات ، ازدرد خلالها لعابه ، وهو يسيطر على انفعالاته فى صلابة ، قبل أن يتساءل :

ـ أهى معلومات مؤكّدة هذه المرة ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال ، وهو يسيطر على انفعالاته بدوره :

ـ مساعدى الأوّل يؤكّد أنها كذلك ، وأنه قد تيقّن من الخبر ، من كل المصادر ، قبل أن يلقى إياه !

مطّ الرئيس شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ كل نفس ذائقة الموت .

وصمت لحظة أخرى ، ثم قال فى حزم :

ـ أريدها جنازة رسمية ، وسأتقدّمها شخصيًا .

وبدا من الواضح ، أنه يقاوم حزنه بلحظة صمت أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ هذا حقه .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد ياسيادة الرئيس .. بالتأكيد .

ثم نهض ، مضيفاً فى حزن ، لم يستطع إخفاءه :

ـ اسمح لي بالانصراف ياسيادة الرئيس .. أريد الإشراف على كل الإجراءات بنفسي .

أومأ الرئيس برأسه ، دون أن يجيب ، فدار المدير على عقبيه ، وغادر حجرة المكتب ، تاركاً الرئيس وحده ، غارقاً فى بحر من الصمت والحزن ، قبل أن يرفع رأسه ، متمتماً :

ـ إنها خسارة حقيقية .. لن يمكننا تعويضه أبداً .

نطقها الرئيس بكل الحزن والأسى ، وهو يعلم أن الخسارة فادحة بحق ..

فذلك الذى فقدته (مصر) ، لم يكن مجرّد رجل عادى ..

لقد كان رجلاً من طراز خاص ..

خاص جداً ..

* * *

الأمر المؤكّد الوحيد هنا ، قبل أن تتواصل الأحداث ، هو أن لقاء الرئيس بمدير المخابرات ، لم يكن الامتداد المباشر ، للنقطة التى توقّفت عندها الأمور ، عند استعراضها للمرة الأخيرة ..

بل كان يعقبه بعدة ساعات حاسمة ..

وخطيرة ..

إلى أقصى حد ..

ليس بالنسبة للرجل ، أو لـ (مصر) وحدها ..

وإنما للعالم ..

العالم أجمع ..

ولكى تتصل الأحداث ، لابد وأن نعود بتلك الساعات إلى الوراء ..

إلى تلك اللحظة ، التى اندفع فيها (أدهم) ، نحو أحد رجال الزعيمة الغامضة ، وانقض عليه كالفهد ، ليدور جسداهما معاً ، ويهبطان عبر تلك الفتحة ، فى قاع المدمرة ، إلى قلب الغوّاصة مباشرة ..

وبالتحديد ، إلى خزان الذهب المصهور ..

ذهب (فورت نوكس) ..

ولم تمض لحظات ، حتى كان الرجـال يطلقون خلفه أطنانـًا من الذهب السائل ..

ذهب تكفى حرارته لقتل جيش من الرجال ..

وبلا رحمة ..

« أوقفوا الضخ .. أوقفوا الضخ أيها الحمقى !! »

انطلق هتاف الزعيمة الغاضب الصارم ، عبر أجهزة الاتصـال المحدودة ، التى تربطها برجالها ، فتبـادلوا جميعًا نظـرة دهشة عارمة ، قبل أن يقول قائدهم ، عبـر أجهـزة الاتصـال نفسها :

ـ ولكننا ننفذ أوامرك بالفعل أيتها الزعيمة ، و ...

قاطعته بصرخة هادرة ، كادت تصمّ أذنيه :

ـ أوقفوا الضخ .

أشار القائد إلى الرجال فى سرعة ، فأوقفوا مضخات الضخ على الفور ، فى حين تساءل هو ، بمنتهى التوتر والحيرة :

ـ ولكن لمـاذا أيتها الزعيمة .. المفترض أن الوقت هـو العامل الرئيسى ، و ....

قاطعته فى صرامة محنقة :

ـ الذهب المصهور يتدفق ، عبر ممرات الغواصة أيها الأغبياء ..

اتسعت عينا قائد الرجال ، وهو يهتف :

ـ عبر الممرات ؟! ولكن ..

بتر عبارته قبل أن يتمّها ، وذهنـه يرسم صورة سريعة لما حدث هناك ..

فى خزان الذهب المصهور ..

وبعين خياله ، رأى (أدهم) ، وهو يسقط مع تلك الرجل ، داخل خزان الذهب ، وقبل أن يهبطا إلى قاعه ، يكون قد أفقده الوعى ، واستولى على سلاحه ، و ....

وما عليه بعدئذ ، سوى أن يغادر الخزان ، ويترك كوته مفتوحة خلفه ، ليتدفق منها الذهب المصهور ، عبر ممـرات الغواصة كلها ..

أما الزعيمة الغامضة ، فلم تشعر بالغضب والسخط ، ومنذ بدأت عمليتها لغزو العالم ، والسيطرة على مقاديره ، بقدر ما شعرت بهما فى تلك اللحظة ، لأنها لم تضف آلات تصوير ومراقبة ، إلى خزان الذهب .

والواقع أنه لم يكن من المنطقى أن تفعل ، مع حرارة الذهب المصهور ، والتى تكفى لإتلاف أية أجهزة أو آلات بالداخل ..

إلا أنها لم تستطع منع نفسها من أن تغضب وتسخط على ما حدث ..

فمنذ أدركت أن (أدهم صبرى) ما زال على قيد الحياة ، وهى تتوقّع سعيه للعودة إلى الغوّاصة ..

فلم يكن من الممكن أبدًا ، وفقًا لتاريخه الحافل ، أن يسمح لها بالحصول على الذهب ، والإنصراف فى سلام ..

كانت واثقة من أنه سيقاتل ..

ويقاتل ..

ويقاتل ..

حتى آخر رمق ..

ولقد استعدت لاستقباله ، من كل المنافذ الممكنة ..

إلا عبر خزان الذهب المصهور !!

ولم يكن مصدر غضبها وسخطها ، إلا أنها قد أهملت هذا ..

أو لم تنتبه إليه فى الواقع ..

بل ولم تتخيّل مجرد حدوثه ..

وهذا يبدو لها ، كنقطة ضعف رهيبة ، تسلّلت إلى عقليتها ، التى درّبتها طويلاً على دراسة كل وأدق الاحتمالات ، وعدم إهمال أية ثغرة ، مهما صغر شأنها ، أو بدا النفاذ عبرها مستحيلاً ..

أو أن (أدهم) ما زال يتفوّق عليها ، بعقليته الابتكارية ، ومبادراته المدهشة غير المتوقّعة ..

وكل هذه الاحتمالات تحنقها ..

وتغضبها ..

وتفزعها أيضًا ..

« ولكن لا .. »

هتفت بالعبارة فى صرامة ، فى أعمق أعماق عقلها ، فى محاولة لتهدئة توترها ، والسيطرة علـى كـل مشـاعرها وانفعالاتها ، ومواجهة ذلك التحدّى الجديد بربط جأش ، وهدوء ثابت ، قادر على إيجاد الحلول ، لأصعب وأعقد المواقف ..

وفى عمق ، التقطت نفسًا من سيجارتها الحمـراء الطويلـة ، ونفثته فى الهواء فى قوة وعمق ، قبل أن تضغط أحد أزرار الاتصال ، قائلة :

- أريد تركيز آلات المراقبـة ، علـى كل الممرات ، التى تقود إلى الخزان .

أجابها مسئول شبكة الاتصال والمراقبة ، فى توتر حـاول أن يخفيه :

- أوامرك أيتها الزعيمـة .. ولكن .. ولكننـا نعانى فى الواقع من خلل فى التوازن ، كما أبلغنا المهندس الأوّل .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تغمغم :

- خلل فى التوازن ؟! ولماذا ؟!

لم تكد تلقى سؤالها ، حتى وثب جوابـه إلى ذهنها السـاخط دفعة واحدة ..

إنه الذهب ..

الذهب المصهور ، الذى تدفّق فى عدد من الممرات ، وتجمّد هناك ، بوزنه الثقيل ، وكميته الهائلة ..

حتى الكوة ، الموصلة بين الخزان والغوّاصـة ، لم يعد من الممكن إغلاقها آليًا ، أو إلكترونيًا ، أو حتى يدويًا ، بعد أن تجمّد الذهب حول إطارها ، وصنع عائقًا ذهبيًا جديدًا ..

وعبر كل شاشات المراقبة ، راحت عيناها تبحثان عنـه فى لهفة وغضب ..

عن (أدهم صبرى) ..

ومن أعمق أعماقهـا ، كانت تدرك أن العثور عليه ليس بالأمر السهل ..

ليس كذلك أبدًا ..

لقد مضت لحظات ، بين سقوطه مع أحد رجالهـا ، داخل الخزان المعزول ، الخالى من آلات الرصد والمراقبة تمامًا ، وبدء ضخ الذهب المصهور ..

لحظات تكفى رجلاً مثله ، ليستبدل ثيابـه بثياب رجلهـا ، وينطلق ليمتزج بجيشها الصغير ، ويتجوّل فى غوّاصتها المنيعة ، كيفما يحلو له ..

وهذا يعني أن خطتها كلها أصبحت تواجه الخطر ..

أعنف مرحلة من الخطر ، عبر مسارها كله ..

ولكن لاينبغى لها أن تفقد أعصابها ، أو توازنها العقلي ..

لا ينبغي لها أن تسمح بهذا أبدًا ..

وبكل ذرة ، في إرادتها الفولاذية الجبّارة ، راحت تجبر جسدها وعقلها على الاسترخاء ، وهي تتراجع في مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، وتفكّر ..

وتفكّر ..

وتفكّر ..

إنه في الداخل ..

وسط رجالها ..

ويسعى لتدميرها ..

أو إفساد خطتها الدقيقة كلها ..

وهذا يعني ، أنها لو كانت في موضعه ، فسوف ..

تألقت عيناها بغتة ، عندما بلغت هذه النقطة ، واعتدلت في مقعدها بحركة حادة ، وألقت بقايا سيجارتها ، بكل

ما تملك من قوة ، إلى ركن حجرتها المؤمّنة الخاصة ، قبل أن تلتقط جهاز اتصال محدود للغاية ، وتضغط زره ، قائلة بلهجة آمرة ، قوية ، متماسكة :

ـ (تيا) .. عمليتنا الكبرى تواجه خطرًا داهمًا .

هتفت (تيا) في انزعاج :

ـ يا إلهي ! وما الذي ..

قاطعتها الزعيمة بمنتهى الصرامة والحزم :

ـ لاتتحدثي كثيرًا ، واسمعيني جيدًا ، ونفذي ماسآمرك به ، بمنتهى الدقة .. وبمنتهى السرعة أيضًا ..

وعندما بدأت تلقي أوامرها ، انبهرت (تيا) بحق ..

فالخطة السريعة ، التي تفتق عنها عقل الزعيمة ، في هذا الموقف العصيب ، كانت تشف عن شخصيتها بحق ..

كانت خطة دقيقة ..

فعّالة ..

ووحشية ..

للغاية ..

* * *

٢ ـ انســـحاب ..

« ماذا يحدث هنا ؟! ماذا يحدث ؟! »

هتفت مستشارة الأمن القومى الأمريكية بالعبارة ، بمنتهى الذعر والهلع ، وهى تعدو بلا هدف ، على سطح مدمّرة الأسطول الأمريكية ، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما ، مع مرأى الجثث والحطام ، المتبقى من المدمرة (أيزنهاور) ، التى سحقها المدفع الليزرى الفضائى سحقًا ، والدماء التى غمرت المحيط ، وأحاطت بالمدمرة الأخرى ، التى تصاعدت من أعماقها جلبة مخيفة مبهمة ..

كان قلبها يخفق بكل رعب الدنيا ، وهى تلعن نفسها ألف مرة ، على أنها قد رافقت المدمرة ، التى تحمل ذهب (فورت نوكس) ، إلى هذه البقعة من المحيط ، لتعرّض نفسها لكل هذا الخطر ..

أما قبطان المدمرة وبحارتها ، وطاقم أمنها الخاص ، وفريق المخابرات الأمريكية ، الذى رافقها سرًا ، فقد راحوا يتحركون على السطح فى توتر شديد ، وجميعهم يجهلون ذلك المصير الذى ينتظرهم ، بعدما أصاب المدمرة (أيزنهاور) أمام عيونهم جميعًا ..

وبكل توتر الدنيا ، هتف بها القبطان فى صرامة :

ـ إلى الداخل ياسيِّدتى .. إننا نحاول السيطرة على الأمور هنا ، وتواجدك على السطح يزعج الرجال ويربكهم ، و ...

قاطعته فى حدة متعالية :

ـ وما فارق الداخل من الخارج ؟! تلك الحقيرة تضربنا من أعلى .. من قمرنا الحربى ، فى فضاء الأرض ..

صرخ فيها القبطان ، فى ثورة غاضبة :

ـ إلى الداخل ياسيِّدتى .. تعاليك وغطرستك يفقدان مفعولهما البغيض ، فى ظروف الشدة والطوارئ ؛ فوفقًا للقوانين البحرية ، أنا الحاكم الأوحد هنا ، وسلطاتى تفوق أية سلطات أخرى ، ما دمنا فى المحيط ..

عقدت ساعديها أمام صدرها فى تحد غاضب ، هاتفة :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

مال القبطان نحوها ، وصرخ فى وجهها :

ـ يعنى أنه إما أن تطيعى أوامرى ، وتغادرى سطح المدمرة فورًا ، أو آمر رجالى بإلقاء القبض عليك ، وتقييدك بالحبال ، كما فعل أسلافى بأسلافك ، منذ بضع مئات من السنين ، وإلقائك ككلب أجرب فى القاع ، حتى نعود إلى الشاطئ .

اتسعت عيناها ، فى ذهول مستنكر مذعور ، وهى تقول :

ـ إنك .. إنك لن تجرؤ ..

اقترب منها أكثر ، وهو يصرخ :

ـ هل ترغبين فى تجربة هذا ؟!

تراجعت أمامه مذعورة ، وشملها مزيج عنيف ، من الخوف والثورة ، وهى تقول :

ـ ســ .. ستدفع الثمن غاليا ، عندما ....

قبل أن تتم عبارتها ، ارتجّت المدمرة فى شدة ..

ارتجّت ارتجاجة عنيفة ، اختل معها توازن الجميع ، وسقطت هى أرضًا ، وهى تصرخ فى ارتياع :

ـ رباه ! ماذا ستفعل بنا ؟!

استعاد القبطان توازنه بسرعة ، وانطلق يعدو نحو قمرة القيادة ، فى محاولة لفهم ماحدث ، فنهضت هى ، ولحقت به ، هاتفة :

ـ ماذا فعلت بنا تلك الحقيرة ؟!

كان القبطان يحدق فى كمبيوتر الأعطال ، فى ذهول مذعور ، جعلها تهتف مرتجفة :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟!

استدار إليها القبطان بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ الغوّاصة .. لقد انفصلت عنا ، دون أن تحصل على الشحنة كاملة ، وهى تبتعد بسرعة .

تراجعت ، مغمغمة فى دهشة :

ـ دون أن تحصل على باقى الشحنة ؟! ولكن لماذا ؟!

بدا القبطان شديد اليأس والتوتر ، وهو يقول :

ـ ليس هذا هو المهم الآن .. لقد انفصلت الغوّاصة ، تاركة فجوة كبيرة فى قاعنا ، كانت توصلنا بها ..

ارتجف صوت مستشارة الأمن القومى أكثر ، وهى تقول :

ـ فتحة كبيرة ؟!

صاح بها القبطان ، فى غضب مفاجئ :

ـ نعم أيتها المستشارة .. فتحة كبيرة ، تعنى أن المياه تتدفّق فى القاع بكميات هائلة ، وسرعة مخيفة .. أو بمعنى أكثر دقة ووضوحًا .. إننا نغرق يا مستشارة الأمن القومى .. نغرق ..

وانتفض جسدها بمنتهى القوة والعنف ، وذهنها يردّد فى كل ذرة من أعماقها السؤال نفسه ..

لماذا يحدث هذا ؟!

لمـاذا ؟!

لمـاذا ؟!

* * *

لم يشعر (قدرى) ، خبير التزييف والتزوير ، فى المخابرات العامة المصرية ، بكل ذلك القدر ، من اليأس والإحباط ، مثلما شعر بهما فى تلك اللحظات الرهيبة ، وهو يجلس داخل الطائرة الحربية الأمريكية ، التى تحمله مع (منى) و(شريف) و(ريهام) ، فى طريقهم إلى ذلك المعتقل البربرى الحقير ، فى جزيرة (جوانتانامو) الكوبية ..

فمنذ أعلنوهم بهذه الوجهة الرهيبة ، لم يتوقف ذهنه لحظة واحدة ، عن استعادة كل ما قرأه عن ذلك المعتقل ، الذى نقلت إليه الإدارة الأمريكية أسراها فى (أفغانستان) على نحو يتعارض مع كل قواعد الإنسانية ، ومع كل قوانين الأسرى ، ومعاهدات (جنيف) ، التى تمسكت بها فقط ، عندما سقط أسراها فى قبضة العراقيين ..

استعاد ذهنه الزنازين الضيقة ، المكشوفة ، المزرية ، والسلاسل المعدنية فى المعاصم والكواحل ، و ....

« لا .. إننى أفضل الموت .. »

نطقتهـا فجأة ، ودون أن يدرى حتى إنه قد فعل ، فاستدار إليه رفاقه الثلاثة ، بنظرة تعاطف مشفقة ، فى حين قال الجندى الأمريكى ، الذى يصوب إليهم مدفعه الآلى ، فى صرامة قاسية :

ـ كلمة أخرى ، وأطلق النار عليكم بلا رحمة .

أدارت (منى) عينيها إليه ، فى تحد واضح ، وهى تقول :

ـ اعتقالنا لا يعنى منعنا من تبادل الأحاديث يا هذا ..

زمجر الجندى الأمريكى فى وحشية ، وهو يقول :

ـ ولكننى أنا أصرّ على هذا .

ثم لوّح بمدفعه الآلى ، مستطردًا فى شراسة متشفية :

ـ وأنا الذى يحمل السلاح .. أليس كذلك ؟!

قالت (منى) فى سخرية :

ـ أهذا مـا تؤمنون بـه أيها الأمريكيون ؟! منطق القوة وحده دون سواه ؟!

زمجر الجندى مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ نعم أيتها المصرية .. هذا ما نؤمن بـه .. منطق القوة .. دون سواه ..

صاح به (قدرى) فى حدة :

ـ وماذا ستفعل بنا ، لو عارضنا هذا ؟! هل سترحمنا بإطلاق النار علينا ؟!

شعرت (ريهام) بالتوتر ، وهى تقول :

ـ تمالك ياسيد (قدرى) .. لاتفقد أعصابك ، حتى لاتمنحهم الفرصة لـ......

قاطعها (قدرى) بنفس الحدة :

ـ لماذا يا بنيتى ؟! أمنحهم الفرصة لماذا ؟! لقتلى ؟! هل تتصورين أن إبقاءنا فى ذلك المعتقل الرهيب فى (جوانتانامو) ، أقل ضرراً من الموت ؟!

جذب الجندى إبرة مدفعه فى عصبية ، وهو يصرخ فيهم :

ـ بالأمريكية .. تحدثوا بالأمريكية ، أو ...

لم تسمع (منى) باقى صرخته ، وهى تدرس الموقف ببصرها فى سرعة ..

كانت جالسة مع رفاقها الثلاثة ، على مقعدين خشبيين طويلين متقابلين ، فى الجزء الخلفى من طائرة نقل جنود أمريكية حديثة ، ومعاصمهم وأقدامهم مكبلة بأغلال حديدية ، فى حلقات خاصة ، مثبتة بالمقعدين الخشبيين ، وأمامهم جندى عصبى ،

مدجج بالأسلحة ، يصوب إليهم مدفعاً آلياً متحفزاً ، وخلفه ثلاثة آخرون ، جذبتهم عصبية (قدرى) ، وحدة زميلهم ، فنهضوا يقتربون ؛ لاستبيان الأمر ..

أربعة جنود مسلحون إذن ..

وأربعة من الأسرى ..

« فليكن .. سأنسف رأسك أيها البدين ، وألقى بك من الطائرة ؛ لتخفيف الحمولة .. أنت تستحق هذا .. »

نطقها الجندى الأمريكى الغاضب ، وهو يصوب مدفعه نحو (قدرى) بالفعل ، ويستعد لنسف رأسه بلاتردُّد .

وفى حزم ، وعلى الرغم من توتر الموقف ، قال (شريف) :

ـ السيد (قدرى) على حق .. الموت أفضل مما ينتظرنا على أيدى أوغاد مثلهم ، فى معتقل كذلك ..

وغمغمت (ريهام) :

ـ وأنا أتفق معك .

نقل الجندى بصره بينهم فى عصبية ، دون أن يفهم حرفاً واحداً ، من الحديث الذى يتبادلونه بالعربية ، فصاح فى حدة :

- لايوجد مايمنعنى من إطلاق النار على رءوسكم جميعاً .

رفعت (منى) بصرها إليه ، بنظرة صارمة ، وهى تقول :

- أنت واثق من هذا ؟!

نطقتها ، وذهنها يسترجع كل مالقنها إياه (أدهم) ، خلال سنوات عملهما معًا ، وأصابعها تعمل فى سرعة ومهارة ، لمعالجة قفل القيود ، التى تحيط بمعصميها ..

ومن حسن حظها أن الزاوية الوحيدة ، التى كانت تسمح برؤية ماتفعله ، هى تلك التى يحتلها جسد (ريهام) ، التى انعقد حاجباها فى شدة ، وخفق قلبها فى عنف ، وهى تتابع أصابع (منى) ، فى حين قال الجندى الأمريكى ، فى عصبية أكثر :

- ومن يمكنه منعى ؟!

أجابته (منى) بنفس الصرامة ، وهى تميل نحوه قليلاً ؛ لتخفى حركة أصابعها :

- قيادتك .

قال الجندى ، فى عصبية وتحفز مضاعفين :

- وما شأن قيادتى بالأمر ؟!

وصل رفاقه الثلاثة إليه ، فى هذه اللحظة ، وسأل أحدهم فى خشونة :

- ماذا يحدث هنا بالضبط ؟!

أجابه الجندى الأول فى حدة :

- إنهم يتحدثون .

انعقد حاجبا الثانى ، وتساءل فى صرامة ، تحمل لمحة من الحيرة :

- وماذا فى هذا ؟!

صاح (قدرى) فى غضب عصبى :

- سل هذا الأحمق الحقير ، الذى سيطر عليه غرور القوة ، حتى تصوَّر أن السلاح الذى يحمله فى يده ، يمنحه الحق فى الإساءة إلى الآخرين وإهانتهم .

زمجر الجندى الثانى ، وهو يقول فى غلظة :

- بالطبع أيها البدين .. البقاء دائمًا للأقوى .

هتفت (منى) فى صرامة :

- هراء ..

وفى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها هتافها ، اعتدلت (منى) متحررةً من قيود معصميها ، وأمسكت المدفع الآلـى ، من يد الجندى ، وأدارت فوهته إلى أعلى ، مضيفة :

ـ البقاء دومًا للأفضل .

مع حركتها المباغتة ، تراجع الجنود الثلاثة الآخرون بحركة حادة ، فى حين ضغط الجندى الأول زناد مدفعه الآلى ، وهو يطلق صرخة مذعورة ..

وانطلقت رصاصات المدفع الآلى الأمريكى ، داخل طـائرة نقل الجنود ، التى تحلق فوق المحيط الأطلنطى ..

واخترقت الرصاصـات سقف الطائرة ونوافذهـا ، التـى تحطم زجاجها فى عنف شديد ..

ومع تحطمه ، اختلّ توازن الضغط داخلها بغتة ، وارتج جسمها بمنتهى العنف والقوة ..

وكان هذا ينذر بكارثة ..

كارثة رهيبة ..

ومؤكدة .

* * *

على الرغم من دقة الموقف وصعوبته ، وحالة التوتر الشديدة داخل أروقة وممرات غواصة الزعيمة ، أرخى (أدهم) قبعته قليلاً على وجهه ، وهو يسير فى هدوء شديد ، فى زى ذلك الرجل ، الذى أفقده وعيه ، فى خزان الذهب ، حاملاً مدفعه الآلى الحديث ، وذهنه يراجع خريطة المكان ، وفقًا لتحركاته السابقة فيه ، مع الصينية الحسناء (تيا) ..

لم يكن الأمر يسيرًا ، وسط حالة الاضطراب المتحفزة فى المكان ، إلا أنه شق طريقه فى ثقة ، حتى وجد أمامه فريقًا من أربعة رجال مسلحين ، هتف به قائدهم فى صرامة :

ـ ماذا تفعل هنا وحدك ؟! أين مجموعة البحث التى تتبعها ؟!

كان يعلم أن آلات المراقبة ترصد كل سنتيمتر من الغواصة ، وأنه لم يعد يفصله عن قاعة التحكم الرقمى سوى ممر واحد ؛ لذا فقد أجاب فى هدوء ، وهو يحمل المدفع الآلى أمام وجهه ، ليخفى له الشطر الأعظم فى ملامحه :

ـ لقد انفصلنا إلى مجموعات فردية بسيطة ..

انعقد حاجبا الرجل ، وهو يحاول تجاوز المدفع الآلى ببصره ؛ ليستكشف ملامحه من خلفه ، قائلاً فى غلظة :

ـ هذا محظور تمامًا .. الأوامر تحتم أن ..

« إنه هو .. »

انطلق الهتاف ، بصوت الزعيمة الغامضة بغتة ، في أذن قائد الفريق الصغير مباشرة ، عبر جهاز اتصال رقمي دقيق ، مثبت فيهما ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وسرت في جسده كله موجة من التوتر المتحفز ، و .....

ولم يضع (أدهم) جزءًا من الثانية كعادته ..

فمع انقلاب سحنة قائد الفريق ، وعلى الرغم من أنه لم يسمع حرفًا واحدًا من هتاف الزعيمة الغامضة في أذنيه ، أدرك (أدهم) أن أمره قد انكشف ..

وانقض ..

كانت انقضاضة سريعة مباغتة ، بدت للرجال الأربعة أشبه بإعصار ساحق ، حطم أنوفهم وفكوكهم ، وفجر الدماء في عدة مواضع من وجوههم ، وجعل (تيا) تغمغم مبهورة ، وهي تقف إلى جوار الزعيمة الغامضة ، وتتابع المشهد كله على شاشات الرصد :

ـ مستحيل ! لم أتصور أبدًا أن هناك من يمكنه أن يقاتل بهذه السرعة .

نفثت الزعيمة الغامضة دخان سيجارتها الحمراء الطويلة بمنتهى العمق ، وهي تقول في هدوء عجيب ، وكأن ما تتابعه مجرد مشهد سينمائي ، وليس قتالاً عنيفًا ، يدور في أروقة غواصتها :

ـ عدلي مفاهيمك إذن ؛ فأنت تشاهدين رجلاً ، يختلف عن كل من عرفت من الرجال ..

تنهدت (تيا) في شيء من اللوعة ، مغمغمة :

ـ كنت أتمنى لو عرفته ، في ظروف مختلفة .

في نفس اللحظة ، التي نطقت فيها عبارتها ، كان الرجال الأربعة قد تساقطوا كالذباب ، في حين تجاوزهم (أدهم) بوثبة مرنة ، وجراح كتفه اليسرى ، وفخذه اليمنى ، تعاود النزف ، وتلوث ضماداته بدمائه الحمراء القانية ، ثم ينطلق بأقصى سرعته ، نحو قاعة التحكم الرقمي الشاملة ، فهتفت (تيا) مذعورة :

ـ إنه يتجه إلى هناك .

بدت الزعيمة هادئة ، أكثر مما ينبغي ، وهي تقول :

ـ لن يكون (أدهم صبري) الذي أعرفه ، لو لم يفعل .

هتفت (تيا) :

ـ ولكن كيف حدّد هدفه ؟!

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ إنه يمتلك ذاكرة فوتوجرافية مدهشة .

نقلت (تيا) بصرها فى دهشة مستنكرة ، بين وجه الزعيمة وشاشات الرصد ، قبل أن تقول :

ـ وهل ستسمحى له بـ ...

قاطعتها الزعيمة الغامضة بإشارة صارمة من أصابعها ، وهى تقول :

ـ صمتًا يا (تيا) ..

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، وألقت نظرة سريعة على مؤشرات الغوص ، التى تشير إلى أن الغواصة قد انفصلت عن المدمرة ، وتنطلق بالفعل فى الأعماق ، قبل أن تسترخى فى مقعدها ، مستطردة :

ـ أريد الاستمتاع بكل لحظة .

كان (أدهم) ، فى اللحظة نفسها ، يقتحم قاعة التحكُّم الرقمى الشامل ، وهو يشهر مدفعه الآلى ، و ....

ولكنه توقّف فجأة ..

توقّف لينعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدير بصره فيما حوله ، فى توتر شديد كامل ، و .....

« مفاجأة يا عزيزى (أدهم) .. أليس كذلك ؟! »

تردّد صوت الزعيمة الغامضة ، هادئًا واثقًا ، عبر مكبرات الصوت المنتشرة فى القاعة ، على نحو استفز مشاعر (أدهم) ، فخفض فوهة مدفعه ، وهو يقول فى شىء من السخرية :

ـ أعترف إنها كذلك ، يا زعيمة الحمقاء ؛ فمن المؤكّد أننى قد توقعت ألف احتمال واحتمال ، وأنا أتجه إلى هنا ، ولكن لم يكن بينها احتمال واحد ، أن أجد القاعة خاوية ، على ما هى عليه الآن .

حمل صوتها نشوة واضحة ، وهى تقول :

ـ أيعنى هذا أننى واحدة من القلائل ، الذين نجحوا فى إثارة دهشة (أدهم صبرى) الأسطورى ؟!

بدا وكأنه يزن كل حرف من كلماته ، وهو يقول :

ـ هذا يتوقّف على الوسيلة ، التى أمكنك بها إفراغ قاعة تحكُّم رئيسية مثلها ، بهذه السرعة المدهشة .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، ردّدتها مكبرات الصوت في القاعة الخاوية ، وأعادت إلى ذهنه ذكرى مبهمة ، قبل أن تقول :

ـ العبقرية تكمن دومًا في البساطة يا عزيزي ، وما فعلته كان مجرّد خطة بديلة ، يفترض تنفيذها في حالات الطوارئ القصوى ، ولم يكن موعد تنفيذها قد حان بعد ، إلا أنها كانت فرصة نادرة ، لاختبار فاعليتها .

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف في سخرية :

ـ وهي فعّالة .. أليس كذلك يا عزيزي ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يسألها في اهتمام :

ـ أأنت واثقة من أنك لاتستخدمين أحد وسائل تغيير الأصوات ؟!

أجابته في ثقة وحزم :

ـ تمام الثقة يا عزيزي (أدهم) .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ عجبًا ! صوتك لايبدو مألوفًا لنا ، ولكن أسلوبك يذكّرني بأفعى سامة ، تعاملت معها لوقت طويل ..

لاحظت (تيا) ذلك التوتر ، الذي سرى في ملامح الزعيمة ، عندما نطق عبارته هذه ، على الرغم من أن صوت هذه الأخيرة ظل هادئًا واثقًا ، وهي تسأله :

ـ أي نوع من الأفاعي يا عزيزي ؟!

حملت كلماته كل السخرية ، وهو يفحص القاعة الخاوية بنظرة ثاقبة خبيرة ، قائلاً :

ـ لا فارق يازعيمة الأوغاد .. كل الأفاعي السامة تتشابه .

انعقد حاجباها ، وهي ترمي سيجارتها إلى ركن حجرتها ، قائلة ، في شيء من الغضب :

ـ خطأ يا سيّد (أدهم) .. حتى الأفاعي السامة تختلف ، في جمال شكلها ، ودرجة خطورة سمومها ، وسرعة تأثيره ، ومفعوله .

كانت عيناه تواصلان فحص القاعة الخالية ، بحثًا عن تفسير منطقي لما حدث ، وهو يقول بنفس السخرية :

ـ المهم أنها كلها تحمل الموت الزاحف ، في أنيابها الجميلة أيتها الحقيرة .

بنت صارمة قاسية ، وهى تقول :

ـ أحياناً لاتكمن الخطورة فى الموت ، بل فى الـ ....

«مسرح دائرى .. »

قاطعها بالكلمة فى سرعة وحزم وثقة ، فبترت عبارتها ، وانعقد حاجباها بمنتهى الشدة ، فى حين هتفت (ثيا) مبهورة :

ـ إنه عبقرى بحق .

لم تنبس الزعيمة الغامضة ببنت شفة ، وهى تتراجع فى مقعدها الوثير ، وتشعل سيجارة جديدة ، من سجائرها الحمراء الطويلة المميَّزة ، وعيناها تتابعان شاشات الرصد ، التى تنقل مشهد (أدهم) ، وهو يتابع :

ـ هذا هو التفسير المنطقى الوحيد ، فقاعة التحكُّم الرقمى الشامل ، مثبتة على قاعدة دائرية ، تشبه تلك التى يستخدمونها فى بعض المسارح الكبرى ؛ لتغيير ديكورات المشاهد المتتالية ، فى سرعة تتناسب مع إيقاع العمل .. إنهم يبنون الديكورات كلها فى وقت واحد ، على أجزاء من قرص دائرى ، تكفى إدارته ، ليحل الديكور الثانى محل الأول ، وهكذا .

ثم عاد يرفع فوهة مدفعه الآلى ، مستطرداً فى حزم :

ـ وهذا يعنى أنه خلف أحد هذه الجدران الزائفة ، توجد قاعة التحكم الرقمية الشاملة ، و ....

قاطعته الزعيمة فى صرامة :

ـ هذا يكفى .. لقد أثبت عبقريتك ، ولاداعى للزهو .

ثم ضغطت زراً أزرق أمامها ، مستطردة فى شىء من الحدة :

ـ فقد سئمت كل ما يتعلَّق بك .

هز كتفيه ، ولوَّح بمدفعه الآلى ، وهو يقول فى سخرية :

ـ وهذا السأم سيؤدى إلى اضطرارى لخوض قتال آخر عنيف ، مع رجالك الذين يحاصرون المكان الآن .. أليس كذلك ؟!

مطَّت شفتيها ، وهى تداعب زراً آخر ، قائلة فى حزم :

ـ بل السأم يعنى ألا يقوم المرء بأية أفعال تقليدية أو معتادة .

ومع آخر قولها ، ضغطت ذلك الزر فى قوة ..

وبسرعة مدهشة ، وعبر تكنولوجيا رقمية بالغة التطور ، انفصلت عن سقف القاعة شبكة معدنية هائلة ، وهوت فوق (أدهم) ، لتغطى جسده كله ، قبل أن تتحرك عضلة واحدة فى جسده ، للابتعاد عنها ..

والواقع أن الابتعاد لم يكن ممكنًا ، حتى مع سرعة الاستجابة المدهشة لرجل المستحيل ..

فالشبكة كانت بحجم القاعة كلها ..

وعندما لامست جسده ، وقبل حتى أن تغطيه تمامًا ، انطلقت عبرها شحنة كهربية عنيفة ، انتفض معها هو بمنتهى العنف ، قبل أن يهوى أرضًا ، ويقع مرة أخرى ، فى قبضة الزعيمة الغامضة ، التى ظلت صامتة ، معقودة الحاجبين ، تنفث دخان سيجارتها الجديدة فى عمق لبعض الوقت ، وكل لمحة فى وجهها تشف عن مزيج من الغضب والمقت ، قبل أن تلين ملامحها دفعة واحدة ، وتتراجع فى مقعدها ، قائلة :

ـ لم أقل لك يا عزيزتى (تيا) ! المتعة لاتكمن فى قتله .

والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، ثم نفثته فى قوة ، مضيفة :

ـ بل فى هزيمته .

قالتها ، والغواصة تنطلق فى أعماق الأطلنطى ..

وتنطلق ..

وتنطلق ..

* * *

٢ـ انفجار..

اهتز توازن الضغط ، داخل الطائرة العسكرية الأمريكية بغتة ، مع تحطم زجاج نوافذها المفاجئ ، وانتزعت موجة التخلخل الناشئة الجنود الأمريكيين من أماكنهم ، وأفقدتهم توازنهم ، وهم يندفعون نحو النوافذ المكسورة ، بقوة شفط هائلة ..

الجندى الأول وحده تشبث بـ (منى) ، التى قبضت يدها اليسرى بكل قوتها ، على السلسلة المعدنية ، التى كانت تثبتها فى المقعد ، الذى مازالت قدماها مقيدتين إليه بالفعل ، وهو يصرخ :

ـ أيتها الـ ......

لكمته (منى) بكل قوتها فى أسنانه ، وهى تهتف فى صرامة :

ـ إياك أن تنطقها .

لكمتها جعلته يفقد تشبثه بها ، فطار جسده عبر فراغ الطائرة ، وهو يطلق صرخة رعب هائلة ، قبل أن يندفع عبر أحد النوافذ المكسورة ، ويطير جسده فى الهواء بضع لحظات ، ثم يهوى من حالق ، نحو مياه المحيط ..

وفى انفعال شديد ، هتفت (ريهام) :

ـ رباه ! لم أتصور أبدًا أننى سأشعر بمثل هذه السعادة ؛ لأننا قعيدون إلى مقاعد قوية ، مثبتة بالجدار .

هتف (شريف) ، وهو يتشبث بمقعده فى حركة غريزية ، على الرغم من قيوده المعدنية القوية :

ـ لولا هذا ، لألقى بنا فارق الضغط المفاجئ خارج الطائرة ، كما فعل مع هؤلاء المساكين .

وعلى الرغم من دقة الموقف وصعوبته ، انطلقت من حلق (قدرى) قهقهة عالية مجلجلة ، وهو يقول :

ـ لست أظن ذلك الضغط كان سيمتلك القوة الكافية ، لانتزاعى من مقعدى .

كان قائدا الطائرة يقاتلان فى استماتة ، للسيطرة على توازنها ، مع ذلك الخلخل المباغت ، وقتالهما يبدو واضحًا ، عبر النافذة الزجاجية السميكة ، التى تربط كابينة القيادة بداخل الطائرة ، فقالت (منى) فى حزم ، وهى تتشبث بقيودها فى قوة :

ـ لن نمضى دقائق قليلة ، حتى يتوازن الضغط هنا ..

إنهما ينخفضان بالطائرة ، وهذا سيجعل الأمر محتملاً ، مع صعوبة محدودة فى التنفس .

قال (شريف) فى حزم ، وهو يتطلع إلى الطيارين فى توتر :

ـ المهم أن نتحرك بأسرع مما سيفعلان ؛ فمن المستحيل أن يغفرا لنا ما فعلناه برفاقهم .

غمز (قدرى) بعينه ، وقال فى جذل عجيب ، وكأنما لم يعد يشعر بما يمرون به جميعًا :

ـ لاريب فى أنهم يراجعون الآن نظرية البقاء والقوة ، مع الأسماك المتوحشة ، فى قلب المحيط .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان أحد الطيارين يقول فى غضب :

ـ أبلغ القيادة بما حدث .. أخبرهم أننا قد فقدنا أربعة رجال ، فى محاولة تمرُّد عنيفة ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يسحب مسدس الطوارئ ، ويحل حزام مقعده ، لينهض مستطردًا :

ـ اضطررنا لإعدام الأسرى .

هتف به زميله ، وهو يضغط زر الاتصال بالقيادة ، بعد أن نجح معه ، فى استعادة السيطرة على الطائرة :

ـ لا تدخر رصاصاتك .

أجابه زميله ، وهو يندفع إلى داخل الطائرة :

ـ اطمئن .. لن أفعل .

وعندما وصل الأول ، إلى حيث يجلس أبطالنا الأربعة ، لم تكن (منى) قد تخلصت من كافة قيودها بعد ، لذا فقد رفعت عينيها إليه فى توتر ، وهو يصوّب مسدسه ، قائلاً فى مقت :

ـ ما فعلتموه يستحق ما هو أكثر من هذا .

ومرة أخرى ، انطلقت الرصاصات داخل الطائرة ..

وبعنف ..

* * *

اتفق أفراد الإدارة الأمريكية ، فى قرارة أنفسهم ، وبما فيهم الرئيس نفسه ، أنهم لم يروا مستشارة الأمن القومى من قبل ، على هذه الحالة من الغضب والثورة ، عند عودتها من المحيط ، وهى تصرخ ، ووجهها يبلغ ذروة قبحه وتلونه :

ـ تلك القذرة الحقيرة تركتنا فى قلب المحيط ، دون أن تبالى بمصيرنا ، أو حتى بالحصول على ما تبقى من شحنة الذهب !! أكثر من سبعين مليارًا من ذهب (فورت نوكس) ، تركتها تغوص فى أعماق المحيط !!

التقى حاجبا الرئيس الأمريكى ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً فى عصبية شديدة :

ـ أى جنون هذا ؟!

رفع مدير المخابرات سبابته ، قائلاً :

ـ إنه ذلك المصرى .

استدارت العيون كلها إليه ، فى حركة متوترة ، فتابع فى اهتمام شديد :

ـ لقد هبط عائدًا إلى غوّاصتها ، وسببْ لها مشكلة عويصة على الأرجح ، جعلتها تفضّل الفرار ، تاركة خلفها تلك الأطنان من الذهب ، على أن تخاطر بالبقاء لسبب ما .

كانت مستشارة الأمن القومى تستنكر هذا القول تمامًا ، لولا أن استعاد ذهنها ملامح (أدهم) القوية ، وشخصيته الآسرة ، وتلك الفروسية العربية الأصيلة ، التى تطل من كل خلجة من خلجاته ، والتى طالما عشقت مثلها فيما مضى ، فغمغمت :

ـ هذا محتمل .

الخفوت الشديد ، الذى نطقت به الكلمة ، جعل الأنظـار كلها تتجه إليها فى دهشة حذرة ، فتابعت فى خشونة متعمّدة :

ـ وهذا لا ينفى قذارتها وحقارتها .

تمتم مدير المخابرات :

ـ إنه أمر وراثى على الأرجح .

استدار إليه وزير الدفاع بحركة حادة ، وقال فى توتر :

ـ لا تقل : إنك قد توصلت إلى هويتها .

أومأ مدير المخابرات الأمريكية برأسـه إيجابًا ، فـاعتدل الرئيس الأمريكى فى سرعة ، وانطلق من بين شفتيه هتاف متسائل ، شاركه فيه الجميع :

ـ من هى ؟!

صمت مدير المخـابرات لحظـة ، ازدرد خلالها لعابه فـى انفعال ، قبل أن يجيب بصوت مختنق :

ـ شقيقته .

هتفت مستشارة الأمن القومى فى لهفة :

ـ شقيقة من ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، مجيبًا فى انفعال :

ـ زعيم (المافيا) الروسية السـابق ، الذى سحقه المصرى وفريقه هناك ، فى قلب عرينه ، منذ عدة أشهر قليلة(*) ، ثم عاد يحطم شقيقه وخليفتـه ، بعدها بفترة محدودة ، صنعت منه أسطورة ، فى (روسيا) نفسـها(**) ..

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف ، فى انفعال أكثر :

ـ لذا ، فقد خرجت الشقيقة المتبقية ، لتثأر لشقيقيها .

سأله وزير الدفاع فى عصبية :

ـ شقيقة (إيفان) و(يورى إيفانوفيتش) ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم ... (إيفانجلينا إيفانوفيتش) .. أو كما يطلقون عليهـا فى عالم (المافيا) الروسية (إيفا) .

حدّق الجميع فى وجهه بصمت مطبق ، سيطر على المكتب البيضـاوى كله ، حتى بدا أشبه بقاعة للموتى ، قبل أن يغمغم الرئيس فى عصبية :

ـ وأى فارق يمكن أن يصنعه هذا ؟!

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم (١٣٤) .

(**) راجع قصة (المواجهة الأخيرة) .. المغامرة رقم (١٤٠) .

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

ـ على الأقل ، نحن الآن نعرف من نواجه .

قال الرئيس فى حدة :

ـ ولكنها مازالت تسيطر على مقاليد الأمور ..

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى صدر أزيز متقطّع ، من جهاز الاتصال الجديد ، الذى طلب مستر (X) إضافته ، فالتفت إليه الجميع فى توتر بالغ ، قبل أن يغمغم وزير الدفاع فى عصبية :

ـ تُرى أيهما سنجد أمامنا الآن ؟!

عضت مستشارة الأمن القومى شفتها السفلى ، قائلة :

ـ لو أنها تلك الحقيرة ، فسوف ..

لم تكن قد أتمّت قولها بعد ، عندما أضيئت شاشة جهاز الاتصال ، وظهر عليها وجه مستر (X) الغارق فى الظلمة كالمعتاد وهو يقول فى هدوء عجيب :

ـ مرحبًا أيها السادة .

قال الرئيس ، فى عصبية شديدة :

ـ أراهن أن الأخبار قد بلغتك ..

أجابه مستر (X) فى هدوء ، يحمل لمحة من ثقة ظافرة :

ـ أنا أصنع الأخبار ، ولا أتلقاها يا سيادة الرئيس .

سأله مدير المخابرات فى سرعة واهتمام :

ـ ماذا لديك إذن ؟!

خيّل إلى أربعتهم أن عينى مستر (X) قد تألقتا ، وسط الظلمة التى يختفى فيها وجهه ، وهو يقول :

ـ لقد عثرنا عليها .

سرت قشعريرة انفعالية باردة كالثلج ، فى جسد الرئيس ، وشهقت مستشارة الأمن القومى ، وانعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، فى حين هتف وزير الدفاع :

ـ هل تعنى تلك الزعيمة ؟!

تابع مستر (X) ، وكأنما لم يسمع عبارته الاعتراضية :

ـ أجهزتنا الحديثة المتطوّرة ، كشفت موقع غواصتها السرية ، فى قلب المحيط ، ولدى جيش كامل ، من أقوى وأبرع رجالى ، يشن عليها هجومًا ساحقًا ، فى هذه اللحظة .

مع آخر قوله ، اختفت صورته من الشاشـة ، وظهرت بدلا منها صورة للمحيط ، وعشرات من طائرات الهليكوبـتر القوية ، تنقض فيـه على غواصة الزعيمة التي بدت أشـبه بطبق طائر خرافي هائل ، على سطح المحيط ..

وكان هجوم الرجال ساحقًا بالفعل ..

لقد حاصروا الغوّاصة ، ووثبـوا على سطحها ، وراحوا يعملون بسرعة ومهارة مدهشتين ، لتثبيت عدد من المناطيد القوية في أطرافها ، لم يلبثوا أن أطلقوا أسطوانات الغاز المضغوط ، في تلك المناطيد ، لترتفع عاليًا ، على نحو يمنع الغوّاصة من الهبوط إلى الأعماق مرة أخـرى ، مهما بلغت قوة محركاتها ..

«فكرة عبقرية بحق .. »

غمغم وزير الدفاع الأمريكـي بالعبـارة ، وهـو يطـالع المشـهد على الشاشـة ، فـانبعث صوت مستر (X) ، وهـو يقول :

ـ إنك لم تر شيئًا بعد .. لقد زودت الرجال بآلات تصوير رقمية مباشرة ومتحركـة ، لأنقل إليكم تفـاصيل سـقوطها لحظة بلحظة .

تمتمت مستشارة الأمن القومي ، وهي تهز رأسـها فـي بطء ، دون أن ترفع عينيها عن الشاشة :

ـ سقوطها ؟! لست أتصوّر أن الأمر يمكن أن ينتهي علـى هذا النحو .

بدا صوت مستر (X) مفعمًا بالثقة والظفر ، وهو يقول :

ـ هي أيضًا لم تتصوّر هذا بالتأكيد ..

لم يحاول أحدهم التعقيب على عبارته ، مكتفين بمتابعـة الهجوم ، حيث سيطر رجاله على سطح الغوّاصة تمامًا ، ثم استخدموا قاطعًا ليزريًا قويًا ، لصنع فتحة كبيرة في برجها ، اندفع عبرها فريق اقتحام مدرّب ، ليقتحم الغوّاصة مـن الداخل ..

وفي توتر وانفعال ، تمتم وزير الدفاع :

ـ سنشهد أنهارًا من الدم الآن .

سقطت عبارته في هاوية الصمت ، المخيم على المكتب كلـه ، والشاشة تنقل عملية الاقتحام القوية ، ودخول الغوّاصة ، و ...

« إنها خالية !! »

هتف قائد فريق الاقتحام بالعبارة في دهشة ، وهو يندفع مع رجاله ، عبر ممرات وأروقة الغواصة الخاوية ، و ...

« رباه ! إنها خدعة .. »

كان مدير المخابرات هو من هتف بالعبارة ، في انزعاج شديد ، قبل أن يصرخ بكل قوته :

ـ مر رجالك كلهم بالتراجع يا مستر (X) ، وبأقصى سرعة ممكنة .

وصرخ مستر (X) ، قبل حتى أن تكتمل صرخة مدير المخابرات :

ـ تراجعوا .. انسحبوا فوراً .

أصاب الأمر المفاجئ قوات مستر (X) باضطراب شديد ، وخاصة داخل تلك الممرات الضيقة المتشابكة ، فتدافعوا محاولين الخروج من الغواصة ، ومستر (X) مازال يصرخ :

ـ انسحبوا بأقصى سرعة .. أقصى سرعة .

ثم فجأة ، نقلت الشاشة صوت انفجار عنيف ، أعقبه مشهد كتلة هائلة من اللهب ، تندفع عبر ممرات الغواصة ،

ممتزجاً بصرخات رعب رهيبة ، انطلقت من حلوق الرجال، قبل أن ينقطع المشهد بغتة ، وتظهر بدلاً منه صورة مستر (X) ، التي راحت تهتز في قوة ، وهو يهتف :

ـ مستحيل ! لقد خدعتنا جميعاً ! مستحيل !!

تلاشت صورته ، مع نهاية هتافه ، لتحتل محلها صورة أخرى ، ارتجفت لمرآها أطراف الجميع في عنف ..

وعلى الشاشة ، ابتسمت الزعيمة الغامضة ابتسامة واسعة كبيرة ظافرة ، قبل أن تجلجل ضحكتها الرهيبة ..

تلك الضحكة الساخرة ..

الشامتة ..

والوحشية ..

إلى أقصى حد ..

* * *

فجأة ، وفي نفس اللحظة ، التي صوب فيها الطيار مسدسه ، هبّ (شريف) و(ريهام) من مكانيهما ، وانقضا عليه في عنف .

والمدهش أنهما قد فعلا هذا، دون أن يتخلّصا من تلك القيود المعدنية، التي تربطهما إلى المقعد الخشبي الطويل، الذي يتشاركانه ..

فلأنهما قد أدركا أن الوقت لن يسعفهما لحل تلك القيود، قرّرا معًا اللجوء إلى تكتيك مختلف تمامًا ..

لقد انتزعا المسامير الحلزونية، التي تثبت المقعد نفسه بجسم الطائرة المعدني.

وعندما صوّب إليهما الطيّار مسدسه، هتف (شريف):

- الآن ..

وبتناسق مدهش، حملا المقعد معًا، وانقضّا به على الطيّار ..

وبمنتهى العنف ..

ومع المفاجأة، تراجع الطيّار، وهو يلوّح بمسدسه، صائحًا:

- لا .. مستحيل! لايمكن أن ..

وقبل أن يكمل صيحته، ضغط زناد مسدسه بالفعل ..

ضغطه مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وانطلقت رصاصاته ترتطم بالمقعد الخشبي، الذي صنع منه (شريف) و(ريهام) درعًا واقيًا، قبل أن يحوّلاه إلى أداة قتال عنيفة، ويضربان به وجه الرجل في قوة ..

وسقط الطيّار، وطار مسدسه من يده بعيدًا، فاندفعت (ريهام) نحوه، وهي مازالت تحمل ذلك المقعد، وركلته في أنفه مباشرة، وهي تقول:

- لو أنك لاتحمل ذخيرة إضافية، فسأغضب بحق.

صاح الطيّار الآخر من كابينة القيادة، في عصبية بالغة:

- رباه! ماذا يحدث ؟! كيف فعلتم هذا ؟!

قالها، واختطف بوق جهاز الاتصال اللاسلكي، وهو يصرخ عبره:

- النجدة .. لدينا حالة تمرُّد قوية .. أنا الوحيد المتبقّي .. أرسلوا إمدادات بأقصى سرعة.

مع صرخته، ركلت (ريهام) مسدس الطيّار الأوّل نحو (منى)، هاتفة:

- أسرعي أيتها القائد.

التقطت (منى) المسدس في الهواء، ولم تكد تحكم أصابعها حول مقبضه، حتى أمالت فوهته؛ لتطلق رصاصة على

السلسلة ، التي تثبت قدميها بالمقعد ، ثم هتفت بصديقها وزميلها (قدرى) ، وهى تثب من مكانها ، وتعدو نحو كابينة القيادة :

ـ سأعود إليك .

اتسعت ابتسامة (قدرى) ، وكأنه يتابع فيلما ممتعاً ، وقال :

ـ خذى كل ما يلزمك من وقت ..

كان الطيار الآخر يحاول التقاط مسدسه ، بكل لهفة وتوتر الدنيا ، عندما فوجئ بفوهة مسدس (منى) الساخنة تلتصق بمؤخرة عنقه ، وسمعها تقول فى صرامة :

ـ إياك حتى أن تفكر .

تجمدت أصابعه فى الهواء ، فوق مسدسه مباشرة ، وهو يقول مرتجفاً :

ـ لن .. لن تجرؤى على قتلى .. أو حتى إفقادى الوعى .. مصير الطائرة كلها ، أصبح يعتمد على سلامتى .

قالت ساخرة :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

ثم مالت على أذنه ، مكملة :

ـ إننى فتاة مخابرات مصرية .. هل تدرك كم المهارات ، التى يكسبوننا إياها هناك ؟!

امتقع وجه الرجل ، وتراجعت يده فى سرعة ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ الرحمة يا سيدتى .. إننى أنفذ أوامر رؤسائى فحسب .

اعتدلت قائلة فى هدوء :

ـ لا داعى لكل هذا التوتر يا رجل .

ثم هوت على مؤخرة عنقه بالمسدس فجأة ، مضيفة فى صرامة :

ـ استرخ .

دار رأس الطيار فى قوة ، قبل أن يسقط على مقود الطائرة ، فأزاحته (منى) بحركة سريعة ، واحتلت مقعد القيادة الرئيسى ، وهى تهتف فى حزم :

ـ هل عثرتما على مفاتيح القيود ؟!

أجابها (شريف) فى حماس :

ـ نعم أيتها القائد .. إننا نحل القيود بالفعل .

قهقه (قدرى) فى مرح شديد ، وهو يهتف :

ـ رباه ! كم كنت أتمنى أن نسجل ما حدث ، حتى يراه صديقى العزيز (أدهم) ، ويدرك أنكم قادرون على العناية بأنفسكم وحدكم .

مع ذكر (أدهم)، انعقد حاجبا (منى) فى توتر، وهى تدور بالطائرة، عائدة إلى الساحل الأمريكى، وغمغمت (ريهام) فى توتر:

ـ تُرى أين هو الآن ؟!

أجابها (شريف)، فى لهجة تحمل كل الاحترام والتقدير:

ـ لاتقلقى قط على الأستاذ .. إنه يعرف كيف يدبر شئونه جيدًا.

قالت فى سرعة وحسم:

ـ بكل تأكيد.

سمعت (منى) حديثهما، وهى تقود الطائرة فى مهارة، فسالت من عينيها دمعة ساخنة، انزلقت على وجنتها، مع تمتمتها:

ـ ترى أين أنت يا (أدهم) ؟! أين أنت يا حبيب العمر.

لم تكد تتم العبارة، حتى انتبهت فجأة إلى مقاتلة بالغة الحداثة، ظهرت إلى يسارها ..

ثم لاحظت أخرى إلى اليمين ..

وثالثة فوق المقدمة ..

وخلال أربع ثوان فحسب، كانت هناك ست مقاتلات حديثة مزودة بصواريخ موجهة قوية، تحاصر الطائرة تمامًا، وتحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكى، ارتفع صوت صارم يقول:

ـ اتبعنا يا من تقود الطائرة، وإلا نسفناك بالصواريخ دون رحمة ..

امتقع وجه (قدرى)، على الرغم من انطلاقه، وهو يقول:

ـ رباه ! ليس بعد كل هذا.

أما (شريف) و(ريهام)، فقد تبادلا نظرة صامتة يائسة، قبل أن تسرع الأخيرة إلى كابينة القيادة، قائلة:

ـ هل سنستسلم لهم ؟!

انعقد حاجبا (منى)، وهى تقول:

ـ إنهم لايحملون شعار القوات الجوية الأمريكية.

سألتها (ريهام) فى حيرة:

ـ وما الذى يعنيه هذا أيتها القائد ؟!

صمتت (منى) بضع لحظات، قبل أن تجيب فى حزم:

ـ يعنى أن الأمور لم تعد فى قبضة السلطات الأمريكية .. ولاحتى أية سلطات رسمية أخرى.

كان (شريف) قد بلغ الكابينة فى هذه اللحظة، فقال فى توتر:

ـ إلى من ينتمى هؤلاء إذن ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (منى) ، وهى تجيب :

ـ إلى جهة غير رسمية .

تبادل (شريف) و(ريهام) نظرة بالغة التوتر ، قبل أن يعود بصراهما إليها ، فتابعت بكل الحزم :

ـ جهـة معادية حتمًا ، إلا أنها ستقودنا ـ على الأرجح ـ إليـه .

واختلج صوتها بشـدة ، على الرغم من دقـة الموقف ، وهى تكمل :

ـ إلى (أدهم) .

نطقتها ، وقلبها يخفق بين ضلوعها فى قوة ، وأصابعها الماهرة تدور بالطائرة ، لتتبع المقاتلات الست ، إلى مكـان ما فى قلب المحيط ..

مكان مجهول ..

تمامًا ..

* * *

٤ـ قلعة الشـر ..

عودته إلى وعيه كانت تختلف هذه المرة ..

تختلف كثيرًا ..

فجأة ، ودون أى تمهيد أو مقدمات ، وثب عقلـه دفعة واحدة ، من قاع اللاوعى ، إلى قمة الوعى ..

وفى لحظة واحدة ، وبنشاط ذهنى يفوق المـألوف ، استوعب عقله كل ما حوله ، على نحو مدهش ..

إنه لم يعد داخل تلك الغواصة بالتأكيد ..

فالزنزانة التى سجنوه داخلها هذه المرة ، لها جدران من الصخر ..

جدران توحى بأنها جزء من كهف ما ..

كهف فى أعمق أعماق جبل منيف ..

وعلى الرغم من هذا ، فهى تحوى كل الأنظمـة الإلكترونيـة الدقيقة ، التى كانت تحويها زنزانتـه المعدنيـة ، فى قلـب الغواصة ..

وهذا يعنى أنهم يعرفون الآن ، أنه قد استعاد وعيه ..

يعرفون جيدًا ..

لذا ، ودون أن يضيع لحظة واحدة ، اعتدل جالسًا على طرف فراشه ، وتلفت حوله في شيء من الحيرة ، مغمغمًا :

ـ أين .. أين أنا ؟!

« مرحبًا بعودتك إلى الوعي أيها الوسيم .. »

تردد صوت (تيا) داخل الزنزانة ، عبر جهاز اتصال خفي خاص ، فدار بصر (أدهم) في المكان ، في شيء من الحيرة ، وهو يتمتم :

ـ عجبًا !

نطق الكلمة بالعربية ، ثم أضاف بالإنجليزية ، التي تحدثت بها (تيا) :

ـ صوتك يبدو لي مألوفًا .

حمل صوتها شيئًا من الحيرة والحذر ، وهي تقول :

ـ ألا تذكرني أيها الوسيم ؟! أنا (تيا) .. الصينية .

بدت عليه دهشة حائرة ، وهو يردد :

ـ (تيا) ؟! صينية ؟!

ثم عادت عيناه تجوبان الزنزانة ، في حيرة أكثر ، وهو يتساءل :

ـ معذرة يا سيدتي ... ولكن من أنا ؟!

تفجر صوت (تيا) بالدهشة ، وهي تهتف :

ـ من أنت ؟!

سألها في لهفة متوترة :

ـ أنت تعرفينني .. أليس كذلك ؟! أليس كذلك يا سيدتي .

ارتج على (تيا) الحسناء تمامًا ، وهي تحدق في وجهه ، الذي بدا حاملاً طنًا من الحيرة والاضطراب ، على كل شاشات الرصد ، وحتى تلك المقرّبة منها ، وغمغمت في توتر :

ـ رباه ! هذا يحتاج إلى الزعيمة شخصيًا .

حمل صوت (أدهم) كل حيرته ، وهو يتساءل :

ـ الزعيمة ؟! أية زعيمة ؟!

أنهت (تيا) اتصالها الصوتي به على الفور ، وتراجعت في مقعدها بمنتهى التوتر ، وهي تراقب الشاشات ، مغمغمة :

ـ أهذا ممكن ؟! أهذا بالفعل ممكن ؟!

في نفس اللحظة ، التي نطقت فيها عبارتها ، كانت الزعيمة الغامضة تواجه عمالقة الإدارة الأمريكية ، عبر نظام الاتصال الحديث ، الذي أعده مستر (X) لاتصالاته الخاصة بهم ، وهي تقول في سخرية مخيفة :

— من الواضح أنكم لاتتعلمـون من أخطائكم ، يا حمقى النظام العالمي الجديد .. لقد حذّرتكم من التعاون مع مستر (X) ، الذي لا يصدق بعد أن زمنه قد انتهى ، ولكنكم مازلتم تصرون على معاندتي .

هتفت مستشارة الأمن القومي في حدة :

— لقد تخليت عنا ، في قلب المحيط .

رفعت الزعيمة أحد حاجبيها وخفضته ، وهي تقول بابتسامة ساخرة :

— لقد تركتكم على قيد الحياة .. أليس كذلك ؟!

صرخت المستشارة في غضب :

— داخل مدمرة تغرق .

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها في بطء وعمق ، قبل أن تقول في برود شديد :

— بل داخل واحدة من قطع الأسطول الأمريكي ، تحوي كافة سبل النجاة .

ثم قسا صوتها ، واكتسب وحشية مباغتة ، وهي تستطرد في غضب صارم :

— وكان ينبغي أن تشعري بالامتنان لهذا ، وليس أن تتعاملي معي بهذه الغطرسة المتعالية ، أيتها الحقيرة القذرة .

اتسعت عينا المستشارة في ذهول مذعور ، ثم لم يلبث وجهها أن احتقن في شدة ، وهي تهتف :

— أيتها الـ ....

قاطعتها الزعيمة في وحشية شديدة :

— كلمة واحدة إضافية ، وأسحقك كحشرة حقيرة ، بعد أن أنشر تاريخك القذر ، في كل وسيلة إعلام أمريكية وعالمية ، مع تسجيلات وأفلام ، تكفي لإلقائك خلف القضبان ، لما تبقى لك من العمر .

احتقن وجه مستشارة الأمن القومي أكثر وأكثر ، وبدا وكأن كلماتها قد اختنقت في حلقها ، وعيناها تدوران في محجريهما ، على نحو لم يفت مدير المخابرات ، الذي قال في توتر :

— سيدة (إيفا) .. إننا نعتذر عن كل ما حدث ، و ...

قاطعته الزعيمة في صرامة ، وهي تنفث دخان سيجارتها ، في وجه الشاشة :

— لِمَ خاطبتني الآن ؟!

ضغط مدير المخابرات كلمته ، وهو يجيب في بطء :

ـ باسمك ياسيّدة (إيفانجلينا) .. (إيفانجلينا إيفانوفيتش) .. يازعيمة (المافيا) الروسية .

صمتت الزعيمـة طويـلاً هذه المرة ، وهي تنفث دخان سيجارتها في بطء ، وكأنها تفكرّ فيما سمعته في عمق ، قبل أن تلقي السيجارة الحمراء الطويلة جانبًا ، وهي تقول في صرامة :

ـ هذا يبدو لي أشبه باستعراض معلومات .

قال الرئيس في توتر ، وكأنما يخش ردود أفعالها :

ـ كان من الضروري أن نعرف مع من نتعامل .

غمغمت الزعيمة في بطء :

ـ بالتأكيد .

ثم أشعلت سيجارة حمراء طويلة أخرى ، بقداحتها الماسية المتميزة ، وقالت في صرامة :

ـ ولكن كل شيء له ثمن .

اندفع وزير الدفاع ، يقول في عصبية :

ـ أظننا دفعنا ما يكفي .

أجابته في شراسة :

ـ كلاً .. إنكم لم تدفعوا شيئاً بعد .. ثلاثة أربـاع ذهبكم يرقد الآن في قاع المحيط ؛ لأنكم لم تنفذوا ما اتفقنا عليه .

قال الرئيس في اضطراب :

ـ ولكننا تجاوزنا كل القواعد والأعراف ، لتمنحك ماطلبت ، من ذهب (فورت نوكس) ..

قالت في وحشية شرسة :

ـ كان الاتفاق أن أحصل أيضًا على جثة (أدهم صبري) .

قالت المستشارة في توتر :

ـ ولكنه لم يكن قد لقي مصرعه .

قالت في شراسة :

ـ كان ينبغي أن يلقاه ، عندما أصبح في قبضتكم .

ونفثت دخان سيجارتها بمنتهى القوة ، قبل أن تضيف :

ـ وهذا أكبر خطأ ارتكبتموه .

تبادل الأربعة نظرة مفعمة بالتوتر ، قبل أن يسألها الرئيس في عصبية :

ـ ما مطلبك الجديد إذن ، ياسيّدة (إيفا) ؟!

بدت أشبه بوحش مفترس ، وهى تجيب :

ـ اقتصادكم الأمريكى كلــه لـن يكفينــى هــذه المـرة ، يا رئيس المحتالين .

احتقن وجه الرئيس ، وتراجع فى مقعده كالمصدوم ، فى حين قال وزير الدفاع فى حدة :

ـ اسمعى يا سيِّدة (إيفا) .. لكل شىء حدود ، و ....

قاطعته الزعيمة فى صرامة :

ـ فيم تعتقد أننى سأستخدم ذلك الماس النقى ، الذى حصلت عليه منكم ؟!

بدت الحيـرة على وجه الوزير ، وانعقد حاجبا الرئيس ، وفركت مستشارة الأمن القومى كفيها فى توتر ، فى حين أجاب مدير المخابرات فى حذر :

ـ الكمية التى تملكينها الآن ، تكفى لصنع انهيار فى بورصة الماس العالمية ، و ....

قاطعته فى سخرية وحشية :

ـ هــراء .

ثم مالت نحو الشاشة ، ونفثت دخان سيجارتها فى قوة ، قائلة فى عبث وحشى رهيب :

ـ هل سمعت بتقنية التجميع الجزيئى الأقصى ، التى تعتمد على تكنولوجيا المنمنمات الحديثة(*) ؟!

اتسعت عينا مدير المخابرات فى ارتياع ، وانتفض جسده بمنتهى العنف ، وهو يهتف :

ـ ريـاه !

انطلقت من حلقها ضحكة متشفية وحشية ، وهى تتراجع فى مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ هذا هو الثمن الذى ستدفعونه .. الثمن المناسب .

صاح مدير المخابرات ، وهو يندفع نحو الشاشة ، وكأنـه يحاول إيقافها :

ـ لا يا سيِّدة (إيفا) .. أرجوك .. ليس هذا .

(*) تكنولوجيا المنمنمات (Nanotechnology) : هى تكنولوجيا رقمية حديثة ، تعتمد على تصغير الدوائر وأدوات التوصيل الرقمى ، إلى أقل حجم ممكن ، مما وصل بحجم الأقمار الصناعية مثلاً ، إلا ما لا يزيد عن مائة جرام فحسب ، بنفس إمكانيات الأقمار القديمة الضخمة .

تواصلت ضحكتها الوحشية الرهيبة ، ووجهها يتلاشى على الشاشة ..

ويتلاشى ..

ويتلاشى ..

ولثوان ، بعد أن انتهى الاتصال ، ران على المكتب البيضاوى صمت رهيب ، قطعه وزير الدفاع ، وهو يقول فى خفوت :

ـ ما .. ما الذى أفزعك إلى هذا الحد ؟!

أشار مدير المخابرات بيده ، وهو يقول بصوت مرتجف من فرط الانفعال :

ـ تلك الحقيرة ستستخدم ماسنا ، لتصنع منه أقوى سلاح مدمر ، فى القرن الجديد .

وارتجف صوته أكثر ، وهو يضيف :

ـ سلاح قادر على محو مدن كاملة ، فى لمح البصر .. سلاح يفوق كل ما رأيناه ، طوال نصف القرن الماضى ، فى سينما الخيال العلمى .

امتقعت كل الوجوه ، وعاد الصمت الرهيب يخيِّم على مكتب الرئيس الأمريكى مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، سقطت القلوب بين الأقدام فى رعب ..

كل القلوب ..

* * *

« إنها خدعة .. »

نطقت الزعيمة العبارة فى صرامة ، وهى تراقب (أدهم) ، على شاشات الرصد ، والحيرة والاضطراب يملآن ملامحه ، فهزت (تيا) رأسها فى حذر ، وهى تقول فى توتر :

ـ لم تبد لى كخدعة أبدًا ، ففور إعلان أجهزتنا الدقيقة ، أنه قد استعاد وعيه ، نهض حائرًا ، يتساءل عمن يكون ، وأين هو .

التقى حاجبا الزعيمة فى شدة ، وهى تواصل مراقبة الشاشات بعض الوقت قبل أن تسأل (تيا) :

ـ لقد سجلت هذا .. أليس كذلك ؟!

أومأت (تيا) برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ كل لحظة يتم تسجيلها ، وفقًا لأوامرك أيتها الزعيمة .

أشعلت الزعيمة سيجارتها ، وضغطت أزرار الأجهزة فى سرعة ؛ لتستعيد لحظات استيقاظ (أدهم) الأولـى ، وراحت تطالعها مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى كل مرة ، كانت تتابع كل ذرة من المشـهد ، بمنتهى الدقة والحذر ..

كل لمحة ..

كل خلجة ..

وحتى كل حركة لا إرادية ..

وبعد أن انتهت مـن المشـاهدة الخامسـة ، أصبحت أمام خيارين ، لا ثالث لهما !!

فإما أنه ممثل بارع عبقرى ، لا يشق له غبار ..

أو أنه قد فقد ذاكرته بالفعل ..

والقرار شديد الصعوبة فى الحالتين ..

وهى لن تحتمل الخطأ ..

أدنى خطأ ..

لقد شـارفت بلوغ مرحلة الانتصـار ، التى قاتلت طويلاً لبلوغها ، والتى أبقت على حياته ليشاهدها بعينيه ..

بعقله ..

بذاكرته كلها ..

وسيحنقها كل الحنق ، أن يفقد ذاكرتـه ، عندمـا تـأتى مرحلة الذروة ..

عندئذ لن تشعر بالمتعة ، وهى تكشف له هويتها الحقيقيـة ، على قمة الفوز والانتصار ..

هذا لأنه لن يذكر حتى من هى ..

وما الذى تمثله لحياته كلها ..

لا .. لا يمكن أن يكون قد فقد ذاكرته ..

« إنها خدعة حتمًا .. »

رددت الكلمة مرة أخرى ، فى غضب صارم ، وهى تلقى سيجارتها فى ركن الحجرة ، فترددت (تيا) لحظة ، وغمغمت :

ـ ما دمت ترين هذا .

بدت عبارتها مفتقرة إلى الثقة في وضوح ، فازداد انعقاد حاجبي الزعيمة ، وعقلها يدرس الموقف كله ..

ويفحصه ..

ويمحّصه ..

ثم اعتدلت في حزم ، وضغطت زر الاتصال ، قائلة في صرامة :

ـ هل تتصورّ أن خدعتك هذه ستنطلي عليّ يا (أدهم) ؟!

بدا مضطربًا ، وهو يبحث عن مصدر صوتها ، قائلاً :

ـ (أدهم) ؟! أهذا اسمي ؟!

حملت ملامحه المقرّبة صدقًا وتلقائية ، جعلاها تشعل سيجارة أخرى ، في شيء من التوتر ، حاولت مقاومته ، وهي تتجاهل سؤاله تمامًا ، قائلة :

ـ في كل الأحوال ، لقد أعددت كل شيء ، لتتابع بنفسك الإطلاق الأول ، لأقوى سلاح عرفه هذا القرن الجديد .. سلاح يعتمد على تجميع طاقة الليزر ، من مصادر بالغة القوة ، وتركيزها إلى حد مخيف ، عبر كرة دوّارة ، تتكوّن من آلاف من قطع الماس النقي ، بحيث تحصل في النهاية على حزمة هائلة ، يمكن إعادة توجيهها ، عبر الأقمار الصناعية ، إلى أية بقعة في العالم .

ظلّت ملامحه تشف عن الحيرة والارتباك ، وهو يواصل البحث عن مصدر الصوت ، وكأنما فقد كل مهاراته السابقة دفعة واحدة ، فمالت هي نحو جهاز الاتصال ، وكأنها تحاول تركيز صوتها أكثر ، وهي تقول :

ـ هل تعرف أي هدفين اخترت لتوجيه الضربة الأولى ، التي ستعلن مولد قوة ساحقة جديدة ، ستتزعم العالم كله في المرحلة القادمة ؟!

لم تحمل ملامحه ، التي قرّبتها وكبّرتها شاشات الرصد ، إلى حد مدهش ، أدنى اهتمام بمعرفة الجواب ، فتابعت هي في حزم صارم ، محاولة أن تستفز مشاعره ، وردود أفعاله الطبيعية ، إلى أقصى حد ممكن .

ـ (نيويورك) ... و(القاهرة) .

ردّد ، وكأنما يعتصر ذهنه ، محاولاً التذكّر :

ـ (القاهرة) ؟!

التقى حاجباها مرة أخرى ، وهي تعتدل ، قائلة في صرامة شرسة :

ـ الحزمة التي سيعكسها القمر الصناعي على (القاهرة) ، ستسحق عاصمتك كلها سحقًا .. تمامًا كما فعلت القنابل الذرية الأولى بمدينتي (هيروشيما) و(نجازاكي) ، مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفي وقت أقل بكثير ، ودون نشاط إشعاعي تال ..

وتألّقت عيناها ، على نحو وحشى ، مع استطراداتها :

ـ وبالنسبة لى ، ستكون لحظة تاريخية بحق .

ظل حائراً متردداً ، وهو يسألها :

ـ هل اسمى هو (أدهم) يا سيدتى ؟!

هتفت فى غضب :

ـ هل تسخر منى ، أم تتصور أنك قادر على خداعى ؟!

ارتفع حاجباه فى تأثر ، وقلب كفيه فى حيرة ، وهو يجيب :

ـ إننى أحاول أن أعرف فحسب .

ثم أشار إلى رأسه فى اضطراب ، قائلاً :

ـ هناك ظلام عجيب ، يحيط بذاكرتى كلها .. ظلام مؤلم .

قالها ، وعاد يرقد على فراشه ، وأسبل جفنيه ، وكأنما يحاول تهدئة ذلك التوتر العنيف فى أعماقه ، فنفثت الزعيمة دخان سيجارتها بضع لحظات فى عصبية ، قبل أن تقطع الاتصال الصوتى ، وتتراجع فى مقعدها ، مستغرقة فى تفكير عميق ، جعل (تيا) تهمس :

ـ ما رأيك أيتها الزعيمة ؟! هل ..

قاطعتها الزعيمة بإشارة صارمة من يدها ، وهى مستغرقة فى التفكير أكثر ..

وأكثـر ..

ترى هل فقد (أدهم) ذاكرته بالفعل ، كما حدث من قبل[*] ؟!

أم ماذا ؟!

كان سؤالاً مربكاً ، يحتاج إلى جواب سريع ..

وإلى قرار حاسم ..

حاسم للغاية ..

وإلا فلن يكون لانتصارها الساحق طعماً ..

أى طعم ..

« لا بد وأن نعرف الحقيقة .. »

اعتدلت فى حزم ، وهى تنطق العبارة ، فسألتها (تيا) فى اهتمام :

ـ وكيف أيتها الزعيمة ؟!

(*) راجع قصة (الرجل الآخر) ... المغامرة رقم (٨١) .

أجابتها بمنتهى الحزم :

ـ بأقوى أسلوب ، يعرفه علماء النفس .

وانعقد حاجباها بمنتهى الوحشية ، وهي تضيف :

ـ أسلوب الصدمة .

قالتها ، وهي تضغط أزرار شاشات الرصد مرة أخرى ، فاختفت صورة (أدهم) من بعضها ، لتحل محلها صورة من زنزانة أخرى ، داخل القلعة نفسها ، في قلب المحيط ..

زنزانة تضم (منى) ، و(قدرى) ، و(شريف) ، و(ريهام) ..

وكان هذا ما تعنيه هي بالصدمة ..

الصدمة العنيفة ..

للغـاية !

* * *

انعقد حاجبا طيّار هليوكوبتر الرياسة ، وهو يقول في شيء من التوتر ، فرضه عليه ذلك الصمت العجيب لركابه الثلاثة ، الذين يحتلون أعلى مكانة ، في الإدارة الأمريكية كلها :

ـ أين تريدون الذهاب بالضبط ؟!

أجابته مستشارة الأمن القومي ، في صرامة عصبية ، لم يرَ ما يبرّرها :

ـ هناك .. وسط تلك الأشجار .

بدت الدهشة واضحة ، في صوت الطيّار وملامحه ، وهو يقول :

ـ هناك ؟! في هذه البقعة شبه المهجورة .

هتفت به المستشارة ، في غلظة انفعالية :

ـ هل تتقاضى أجرك لقيادة الهليوكوبتر ، أم لتلقيننا الدروس ، حول الأماكن المناسبة للهبوط ؟!

زفر الطيّار في ضيق ، ولعن صفاقتها ووقاحتها المتغطرسة في أعماقه ، وهو يغمغم في توتر :

ـ كما تأمرين يا سيّدتي .

قاد الهليوكوبتر كما أمرته ، نحو بقعة واسعة ، خارج العاصمة (واشنطن) ، تحيط بها الأشجار ، وهبط في منتصفها تمامًا ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيّدتي .. ربما لا أتجاوز صلاحياتي ، لو أخبرتك أنكم وحدكم هنا ، دون حراسة ، أو ...

قاطعته فى خشونة :

ـ هذا ماتسعى إليه بالضبط .

أشاح الطيّار بوجهه ، دون أن يجيب هذه المرة ، فغادر الثلاثة الهليوكوبتر ، وقال مدير المخابرات فى حزم :

ـ اذهب يارجل ، وعد إلينا بعد نصف الساعة فحسب .

لم يحاول الطيّار مناقشته هذه المرة ، وهو يحلّق بالهليوكوبتر مبتعداً ، ولم يكد يختفى عن الأنظار ، حتى قال وزير الدفاع فى عصبية :

ـ هل تدركون أية مجازفة تلك ، التى نقوم بها ، بتواجد ثلاثتنا فى منطقة معزولة كهذه ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حزم :

ـ هذه هى الوسيلة الوحيدة ، لضمان أن يظل حديثنا هنا طى السرية والكتمان .. لقد أبدلنا ثيابنا كلها ، بثياب جديدة ، ابتعناها بأنفسنا ، ولم يمسها سوانا ، وانتقلنا إلى جهة بعيدة ، تحيط بها الطبيعة من كل جانب ، وتعزلنا أشجارها فى الوقت ذاته ، عن وسائل التنصت الليزرية الحديثة ، فدعونا لانضيع الوقت فى مناقشة هذا ، ونحن نبحث عما ينبغى أن نفعله ، فى المرحلة التالية .

بدت مستشارة الأمن القومى شديدة المقت والكراهية ، وهى تقول :

ـ تلك الحقيرة لم تترك لنا خيارات عديدة .

لوّح الوزير بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ لقد نفذنا كل ماطلبته ، فإذا بها تتمادى فى كل مرة ، وتتجاوز الحدود فى كل خطوة ، والآن تريد أن تستخدم سلاحاً ، عجزنا نحن أنفسنا عن استخدامه ؛ لتكلفته الطائلة ، التى تتجاوز الميزان الاقتصادى لأية دولة على الأرض ، بل وحتى لمجموعة من الدول المجتمعة ، فالطلقة الواحدة ، من ذلك السلاح ، الذى أدرى كيف حصلت عليه ، تستهلك مايقرب من ثلاثين مليار دولار من الماس النقى .

غمغمت المستشارة فى مقت :

ـ هذا يعنى أن مالديها يكفى لثلاث طلقات فحسب .

بدا مدير المخابرات غاضباً محنقاً ، وهو يقول :

ـ ليست هذه هى المشكلة أيتها المستشارة ، فتلك الطلقات الثلاث تكفى ، لإزالة ثلاث مدن عالمية كبرى ، فى غمضة عين ، ولو أنها استخدمت اثنتين منهما فحسب ، فسيكفيها

هذا ، لتثير موجة عالمية من الفزع ، تتيح لها السيطرة على العالم أجمع ، وكل دولـة فيه تخشى أن تكون ضحية الطلقة الثالثة المتبقية .

هتفت المستشارة فى ازدراء :

ـ هذا أسلوب حقير .

أجابها الوزير فى عصبية :

ـ إنه نفس الأسلوب الذى اتبعناه ، مع قنبلتى (هيروشيما) و(ناجازاكى) .

انعقد حاجباها ، على نحو زاد ملامحها قبحًا ، وهـى تقول :

ـ نحن نختلف .

تساءل الوزير ، فى عصبية أكثر :

ـ فيـم ؟!

هتف فيهما مدير المخابرات ، فى حنق واضح :

ـ هل أتينا إلى هنا ؛ لنناقش فلسفة القوة ؟! كـان الأجدى بنا أن نتساءل كيف حصلت تلك الحقيرة على تكنولوجيا شديدة التطور والسرية ، حتى إننا لم نعلن بها معظم قادة جيشنا أنفسهم .

غمغمت المستشارة :

ـ نعم .. كيف فعلت ؟!

هتف فى حدة :

ـ هـذا لم يعد يصنع فارقًا الآن .. المهم هو ما الذى سنفعله فـى مواجهتها ؟! إننـا مسئولون عن القـوة التـى بلغتها ؛ فنحن من منحها الماس النقى ، ولابد أن نجـد وسيلة لإيقافها ، قبل أن تبدأ فى تدميرنا بلا رحمة .

تبادلت مستشارة الأمن القومى نظـرة متوتـرة مـع وزير الدفاع ، قبل أن تتساءل فى عصبية شديدة :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

التقط مدير المخابرات نفسًا عميقًا ، وتطلّع إلى وزير الدفاع مباشرة ، وهو يقول :

ـ هجوم شامل ..

انتفض جسد الوزير ، وهو يسأله :

ـ هجوم شامل ؟! ماذا تعنى ؟!

أجابه مدير المخابرات فى صرامة :

ـ كل ما تعنيه الكلمة بالضبط .. هجوم بكل الأسلحة ، فى

آن واحد .. الطيران ، والبحرية ، والمشاة .. حرب شاملة أيها الوزير .. تماماً مثلما فعلت فى (أفغانستان) و(العراق) .

تصبب عرق بارد على وجه الوزير ، وهو يقول :

ـ فى (أفغانستان) و(العراق) ، كان الأمر يختلف .

قال مدير المخابرات فى حدة :

ـ كان يختلف فقط فى أننا كنا الأكثر قوة ، ولم تكن تواجهنا قوات عسكرية متساوية معنا .. لهذا كنا أسوداً ، أما عندما واجهتنا قوة متساوية ، ومتفوقة بعض الشىء ، فها هى ذى الشجاعة الزائفة تتبخر ، والطبيعة المتخاذلة تعلن عن نفسها فى وضوح .

صاح به الوزير فى حدة :

ـ أأنت معنا أم ضدنا ؟!

صاح مدير المخابرات بدوره :

ـ أنا أبحث عن حل .

صرخ الوزير : أى حل ؟! هل تتصور أننا لم ندرس هذا الاحتمال ؟! خطأ يا مدير المخابرات .. يا مسئول المعلومات الأول ، فى إدارة زعيمة النظام العالمى الجديد .. لقد درس خبراؤنا الاحتمال من كل الزوايا .. احتمال الدخول فى حرب شاملة ، مع خصمة شيطانية ، لديها علم بكل أسرارنا وتسيطر على سلاح

يرصد كل نفس يتردد فى صدورنا ، من فضاء الأرض ، ويحمل مدفعاً قادراً على سحق كتيبة كاملة بضربة واحدة ، فور رصدها من أعلى .. أضف إلى هذا سلاحها الجديد ، الذى لم نعلم بوجوده قبل بضع ساعات قليلة .

هتف مدير المخابرات فى غضب :

ـ هل تعنى أنه ليس أمامنا سوى أن نستسلم ؟!

اندفعت مستشارة الأمن القومى تجيب فى عصبية :

ـ بل أن ننتظر .

لوّح المدير بذراعيه ، هاتفاً :

ـ ننتظر ماذا ؟! لقد أعلنت أهدافها فى وضوح .. إنها ستقوم بضربة تأديبية ، وستسحق إحدى مدننا سحقاً ، ولست أظن شيطانة مثلها تتردد لحظة ، فى تنفيذ أمر كهذا ، فقط لتثبت قوتها وسطوتها .

أجابته فى عصبية :

ـ إنها لن تضرب (واشنطن) .. لقد درست الأمر جيداً ، ووجدت أنه ليس من المنطقى أن ..

قاطعها فى حدة :

ـ أهذا كل ما يشغلك .. أنها لن تضرب (واشنطن) ؟!

قالت بنفس الحدة :

- هذا يعنى أننا سنبقى .

ثم انتبهت إلى ما يحمله قولها من أنانية وغطرسة مفرطتين ، فاستدركت فى سرعة وتوتر :

- لتواصل الصراع :

هز مدير المخابرات رأسه فى قوة ، وهو يقول :

- لن تحل الأمور ، دون مواجهة شاملة .

انعقد حاجبا الوزير ، وهو يشير بسبابته ، قائلاً :

- وماذا لو أمكننا إجراء تلك المواجهة الشاملة ، دون مجازفة حقيقية ؟!

سأله المدير فى حدة :

- وكيف هذا ؟!

أجابه فى سرعة :

- سأخبرك .

وعندما طرح خطته ، شعر مدير المخابرات بدهشة حقيقية ..

فالخطة كانت تشبه تمامًا خطط الزعيمة ..

كانت خطة حقيرة ..

وشيطانية ..

للغاية ..

* * *

٥ - ذاكـــرة ..

« الفرار من هذه الزنزانة مستحيل ! »

نطق (شريف) العبارة فى توتر يائس ، بعد أن انتهى من فحص الزنزانة الإليكترونية ، التى تحتجزهم فيها الزعيمة ، داخل قلعتها السرية ، فى قلب المحيط الأطلنطى ، فهتف (قدرى) فى ذعر :

- ماذا تعنى ؟! هل انتهى مستقبلنا هنا ؟!

غمغمت (منى) فى مرارة :

- هذا يتوقف عما تبقى من مستقبلنا يا صديقى .

عضت (ريهام) شفتيها ، وهزت رأسها فى قوة ومرارة ، وهى تقول :

- لم أشعر فى حياتى كلها ، بمثل هذا القهر والإحباط واليأس .. لقد وضعونا داخل زنزانة محكمة ، ويراقبوننا طوال الوقت ، ويرصدون كل حركاتنا ، وسكناتنا ، على نحو لا يسمح بمجرد التفكير فى الفرار .

تنهدت (منى)، قائلة :

ـ لو أن (أدهم) هنا ، لوجد وسيلة ما .

قال (شريف) فى حزم :

ـ الأستاذ يجد دومًا وسيلة .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهو يضيف فى انبهار ، لم يحد منه وجوده داخل تلك الزنزانة الإليكترونية المخيفة :

ـ إنه عبقرى .

قلبت (ريهام) كفيها ، قائلة فى مرارة :

ـ ولكننا لا نعلم حتى أين هو ، ولا متى ..

قبل أن تتم عبارتها ، وثبت (منى) من مكانها ، فى انفعال شديد ، وانطلقت من حلقها شهقة قوية ، فى نفس الوقت الذى انتفض فيه جسد (قدرى) المكتظ ، وهو يقول فى لهفة :

ـ (أدهم) .

استدار (شريف) و(ريهام) فى حركة سريعة ، إلى حيث يحدق (قدرى) و(منى) ، وارتطم بصراهما بشاشة تليفزيونية ، قريبة من السقف المرتفع ، ظهرت عليها صورة (أدهم) ، وهو يجلس حائرًا ، داخل زنزانة مماثلة ، أصغر حجمًا ..

وكان من الواضح أن (أدهم) قد رآهم أيضًا ، على شاشة مماثلة فى زنزانته ؛ إذ كان يتطلع إليهم مباشرة ، وإن بدا حائرًا مضطربًا ، وهو يقول فى خفوت عجيب :

ـ (أدهم) .. هذا اسمى إذن !

انتفض قلب (منى) بين ضلوعها ، وهى تقول :

ـ اسمك ؟! ماذا أصابك يا (أدهم) ؟!

أما (قدرى) ، فقد اتسعت عيناه فى رعب ، وهو يتمتم :

ـ مستحيل ! مستحيل !

وفى نفس الوقت ، الذى اكتفى فيه (شريف) و(ريهام) بالتحديق فى الشاشة بذهول ، نهض (أدهم) من فراشه ، واقترب منها من جانبه ، متسائلًا فى توتر :

ـ أجيبى يا سيدتى أرجوك .. أهذا اسمى الحقيقى .

شهقت (منى) فى مرارة ، وهى تخفى وجهها بكفيها ، هاتفة :

ـ رباه ! ماذا أصابه ؟! ماذا أصابه ؟!

كان قلبها يتمزق ، على نحو لم يحدث من قبل قط ، فى حين بدا (قدرى) منهارًا ، وهو يقول :

ـ ماذا فعلوا بك يا (أدهم) ؟! ماذا فعلوا بك يا صديقي ؟!

وفي حجرتها ، وبينما تتابع الشاشتين في آن واحد ، انعقد حاجبا الزعيمة في توتر ، وراحت تنفث دخان سيجارتها في عصبية ، جعلت (تيا) تسألها في حذر :

ـ ماذا ترين أيتها الزعيمة ؟!

تجاهلت الزعيمة سؤالها تماماً ، وهي تضغط زر الاتصال بحجرة (أدهم) ، قائلة في صرامة ، حملت لمحة من عصبيتها :

ـ ألن تلقي التحية على رفاقك يا (أدهم) ؟!

بدا أكثر حيرة ، على الشاشات المقرّبة ، وهو يردد :

ـ رفاقي ؟!

انعقد حاجبا الزعيمة أكثر وأكثر ، وراح السؤال نفسه يعربد في أعماق مخها ، على نحو كاد يلتهم خلاياه كله ، وهي تنقل بصرها بين الشاشتين ، في حين قالت (تيا) ، في حذر أكثر :

ـ إنه لا يبدو فاقد الذاكرة فحسب ، وإنما تغيرت شخصيته القوية الآسرة أيضاً ، كما لو كانت تلك الشبكة الكهربية قد ... قد ..

أدارت الزعيمة عينيها الصارمتين إليها في حدة ، فهتفت مكملة :

ـ قد أتلفت مخه .

بدا وكأن حاجبا الزعيمة قد انعقدا ، حتى حدهما الأقصى ، وهي تدرس في ذهنها ذلك الاحتمال ، وعيناها تطالعان كل الشاشات ، التي تنقل صورة (أدهم) ، المكبّرة والمقرّبة ، قبل أن تتمتم :

ـ أمن الممكن أن ....

لم تتم عبارتها ، ولكن عقلها راح يراجع تاريخ (أدهم) كله ، ويتساءل عما إذا كان من الممكن أن ينتهي به القدر إلى هذا المصير !

أن تتلف خلايا مخه !!

ولسبب ما ، لم يمكنها أبداً هضم هذه التهنية أو استيعابها ، فاعتدلت على مقعدها بحركة حادة ، وضغطت أحد أزرار شبكة الاتصالات الداخلية ، قائلة في لهجة آمرة صارمة :

ـ أريد إعداد قسم الطوارئ الطبي ، لاستقبال حالة عاجلة فوراً ، مع اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة .

وأنهت الاتصال ، وهى تستدير إلى (تيا) ، قائلة بنفس الصرامة الآمرة :

- هذه مهمتك .. اصطحبى خمسة من الحراس الأقوياء ، المسلحين بطاقم تسليح كامل ، وأحيطى معصميه بأغلال فولاذية ، بالإضافة إلى السوار الإليكترونى المتفجر ، الذى يرتديه بالفعل ... اتخذى كل الاحتياطات اللازمة ، إلى أقصى درجات الحذر ، فى أثناء نقله ، من زنزانته إلى القسم الطبى ، ومرى الرجال بأن يصوبوا فوهات مدافعهم الآلية إلى رأسه مباشرة طوال الوقت ، وأن يطلقوا النار عند أول بادرة شك ..

ثم تراجعت فى مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها الحمراء الطويلة فى قوة ، قبل أن تتابع بصرامة أكثر :

- وسأتابع مساركم خطوة خطوة ، على شاشات الرصد ، وسأتأهب للتدخل فوراً ، إذا ما راودتنى ذرة واحدة من الشك ، فى أنه يخدعنا .

ومالت نحوها ، مضيفة فى حزم :

- أريد فحص خلايا مخه ، بكل الوسائل المتاحة ، وأريد تقرير الفحص فوراً .. هل تفهمين يا (تيا) ؟! فوراً .

شدت (تيا) قامتها ، فى وقفة عسكرية حازمة ، وهى تقول :

- أوامرك أيتها الزعيمة .

قالتها ، واندفعت لتنفيذ الأمر ، فى حين ظلت الزعيمة جامدة على مقعدها ، تنفث دخان سيجارتها لبعض الوقت ، قبل أن تعتدل ، وتضغط أحد أزرار شبكة الاتصالات الداخلية مرة أخرى ، وقالت فى صرامة :

- أريد إعداد المنصة الكبيرة ، لتوجيه ضربتين ساحقتين ، خلال ساعة واحدة .

أتاها صوت المسئول ، وهو يسأل فى اهتمام :

- وما الهدفين المقصودين أيتها الزعيمة ؟

التقطت نفساً عميقاً للغاية ، من سيجارتها الحمراء ، ثم ألقتها بكل قوتها فى الركن ، وهى تنفث دخانها مجيبة بكل الحزم والصرامة :

- (نيويورك) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، و(القاهرة) فى (مصر) .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت ، فى صرامة مخيفة :

- وسنبدأ بـ (القاهرة) .

قالتها ، وعيناها تتألقان ببريق خاص ..

بريق مخيف ..

ووحشى ..

* * *

أشار المساعد الأول ، لمدير المخابرات العامة المصرية ، إلى خريطة المحيط الأطلنطى ، تم فردها على مائدة الاجتماعات الرئيسية ، وهو يقول فى اهتمام شديد :

ـ خبراؤنا لم يجدوا سوى تفسير واحد يا سيادة الوزير أن تكون تلك الزعيمة قد تركت غواصتها الملغومة خلفها ؛ لأنها قد نقلت مركز قيادتها ، إلى واحدة من الجزر العديدة ، المتناثرة فى المحيط الأطلنطى .. وفى هذه البقعة بالتحديد .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ وهل يرشح الخبراء جزيرة بعينها ؟!

تنهد المساعد الأول ، قائلاً :

ـ إنهم يبذلون قصارى جهدهم ، لدراسة طبيعة كل جزيرة على حدة ، استنادًا إلى أحد الأطالس البحرية ، وآخر

الدراسات المعلنة ، عن جزر الأطلنطى ، ولقد حاولنا الحصول على بعض صور الأقمار الصناعية ، الخاصة بالمنطقة ، لتحديد التغيرات فى السمات الظاهرية للجزر ، والتى يمكن أن تشير إلى وجود مخبأ ما فى قلب إحداها ، إلا أن الأمريكيين يرفضون التعاون معنا بشدة ، على الرغم من أن الخطر يشملنا جميعًا .

غمغم المدير فى ضيق :

ـ هذه طبيعتهم ، ولن ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين الخط الدولى الساخن المجاور له ، فاختطف سماعته بحركة سريعة ، ولم يكد يضعها على أذنه ، حتى سأل نظيره الأمريكى فى اهتمام :

ـ هل من جديد ؟!

أجابه مدير المخابرات الأمريكى فى توتر :

ـ لقد عرفت أخيرًا ، ماذا حدث لرجالك ؟!

سأله مدير المخابرات المصرى ، فى حزم واهتمام :

ـ كلهم ؟!

صمت الأمريكى لحظة ، قبل أن يجيب :

- باستثناء (أدهم صبرى) .

زفر المدير فى توتر ، وهو يسأله :

- فليكن .. أين الباقون ؟!

تردد الأمريكى لحظة ، قبل أن يجيب :

- وزير الدفاع عقد اتفاقًا منفردًا مع مستر (X) ، زعيم تلك المنظمة الخاصة ، واستغل قوات الأمن ، المسئولة عن مكافحة الإرهاب ، وشن عليهم هجومًا عنيفًا ، اعتقلهم خلاله .

قال المدير فى غضب :

- ولماذا هذا الإجراء العدوانى السخيف ؟! المفترض أننا نتعاون فى هذه العملية .

أجابه الأمريكى فى مرارة :

- أقسم إنه لم يكن لدى أدنى فكرة عما حدث .

قال المدير فى سرعة :

- وأنا أصدقك ، ولكننى مازلت أتساءل : أين رجالنا ؟!

أجابه الأمريكى ، فى صوت خافت متوتر :

- الوزير أمر بإرسالهم إلى (جوانتانامو) .

هتف المدير ، فى انزعاج غاضب :

- ماذا ؟! هذا أمر لايمكن قبوله يا رجل .. ولا يمكن السكوت عليه أيضًا .. سنتقدم باحتجاج رسمى صارم ، على هذه التجاوزات السخيفة لإدارتكم ، و ...

قاطعه الأمريكى فى توتر :

- إنهم لم يصلوا إلى هناك .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يقول فى غضب :

- لو أنك تقصد أن ....

قاطعه الأمريكى ، فى توتر أكثر :

- لقد اختفت طائرتهم كلها .. تمامًا كما اختفت مقاتلة (أدهم) من قبل .

ردد المدير فى حدة ، وأصابعه تكاد تعتصر سماعة الهاتف الدولى الساخن :

- اختفت .

وصمت لحظة ، ليدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ اسمع يا رجل .. خبراؤنا لديهم نظرية ، تتعلق بوجود وكر سرى لتلك الزعيمة ، فى واحدة من جزر المحيط الأطلنطى ، ويحتاجون إلى بعض صور الأقمار الصناعية ، لحسم وتأكيد نظريتهم هذه ، ولكن الإدارة لديكم ترفض معاونتنا رسمياً .

قال الأمريكى فى توتر ، وبسرعة توحى بأنه قد حسم أمره من قبل :

ـ سأرسل إليكم كل ما تحتاجون إليه ..

ثم استدرك فى سرعة :

ـ بصفة غير رسمية .

أجابه المدير بمنتهى الحزم :

ـ ونحن سنبذل قصارى جهدنا ، وسنبلغكم النتائج أولاً فأولاً .

شملهما الصمت معاً بضع لحظات ، قبل أن يقول الأمريكى فى توتر ، لم يعد باستطاعته كبحه :

ـ على الرغم من اختلافنا كثيراً فيما مضى ، بحكم انتمائنا إلى أيديولوجيتين مختلفتين ، إلا أننى أريد أن أشكركم كثيراً ، لما تفعلونه من أجلنا .

أجابه المدير فى صرامة :

ـ إننا لا نفعل ما نفعله من أجلكم ، ولكن من أجل رجالنا .

واعتدل فى وقفة قوية ثابتة ، وهو يضيف :

ـ ومن أجل (مصر) .

قالها ، وأنهى المحادثة .

وبمنتهى الحزم ..

★ ★ ★

لم يشعر وزير الدفاع الأمريكى ، فى حياته كلها بالقلق والتوتر ، اللذين شعر بهما فى تلك اللحظة ، وهو يصل إلى ذلك اليخت ، البعيد نسبياً عن الشاطئ ، وكاد ينفجر غيظاً ، عندما قال له قائد الزورق البخارى ، الذى نقله إلى هناك ، فى لهجة لا تحمل أدنى قدر من الاحترام :

ـ تجه مباشرة إلى قمرة القيادة ، واجلس هناك ، فى انتظار التعليمات ، وسأعود إليك بعد نصف الساعة ، وفقاً لتعليمات مستر (X) .

قالهـا قائد الزورق ، وانطلق مبتعداً فى لامبـالاة ، تاركاً الوزير خلفه ، وهو يغمغم فى سخط :

- لابد وأن تدفع تلك الحقيرة ثمن كل ماتتحمله من أجل التخلّص منها .

اتجه وفقاً للتعليمات ، إلى قمرة القيادة ، وهناك وجد مقعداً وثيراً ، فى مواجهة شاشة اتصال جيدة ، فجلس على المقعد ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه فى توتر ، و ...

« معذرة أيها الوزير .. »

انبعث صوت مستر (X) دفعة واحدة ، مع ظهوره المفاجئ على شاشة الاتصال ، فانتفض جسد الوزير من المباغتـة ، ثم اعتدل فى توتر على مقعده ، وزعيم المنظمة الرهيبة يتابع :

- ربما بدت الإجراءات سخيفة هذه المرة ، ولكنها الوسيلة الوحيدة ، للإفلات من التكنولوجيا شديدة التطـور والتعقيد ، التى تستخدمها تلك الشيطانة ، فى كشـف وتعقُّب اتصالاتنا دوماً .

ازدرد الوزير لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

- إننى أقدّر هذا .

بدا وجه مستر (X) غارقاً فى الظلام كالمعتاد ، وهـو يسترخى فى مقعده ، قائلاً :

- عظيم .. كلى آذان مصغية لك أيها الوزير .. ما الذى جئت تطلبه منى بالضبط ؟!

صمت الوزير بضع لحظات ، وكأنما يتردد فى الإفصـاح عما لديه ، ثم لم يلبث أن اندفع فجأة قائلاً :

- خبراؤنا يؤكدون أن الوسيلة الوحيدة ، لمنع تلك الحقيرة من أن تضرب ضربتها ، هى أن نباغتها بهجوم شامل .

قال مستر (X) فى بطء حذر :

- وأنا أوافقهم على هذا الرأى .

استغرق صمت الوزير دقيقة كاملة هذه المرة ، قبل أن يقول :

- وكيف نبرر للشعب قيام قوات الجيش المختلفة بهجـوم شامل ، على هدف مجهول ، لم نفصح عن مدى خطره أبداً .

أجابه مستر (X) فى سرعة :

- هذه ليست مشكلة ، فيمكنكم أن تنسبوا الأمر إلى وجـود خلايا من تنظيم (القاعدة) ، أو تدرجوه ضمن خطـة حرب الإرهاب ، أو ...

قاطعه الوزير فى عصبية :

ـ هذا يحتاج إلى موافقات من (الكونجرس) ، والـ ...

جاء دور مستر (X) ليقاطعه هذه المرة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سيادة الوزير .. لِمَ لاتتحدث بصراحة ووضوح ؟!

ارتبك الوزير ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى حزم :

ـ أعنى أنك لم تطرح بعد المشكلة الحقيقية .. ماذا لو فشل ذلك الهجوم الشامل ؟! كيف يمكن مواجهة الشعب والناخبين عندئذ ؟! بل وكيف سيمكنكم مواجهة غضب الزعيمة بعدها ، وإصرارها على الانتقام ، بذلك العنف الوحشى الذى تجيده ؟!

عقد الوزير ساعديه أمام صدره وهو يقول فى عصبية :

ـ يمكننا أن نقول : إنك قد لخصت المشاكل الرئيسية كلها .

قال مستر (X) فى هدوء وحزم :

ـ ولكننا لم ننتقل إلى خاتمة مطالبك بعد .

قال الوزير ، فى عصبية أكثر :

ـ لاتحاول إقناعى أن ذكاءك الفذ ، لم ينجح فى استنباطها بعد .

حمل صوت مستر (X) كل صرامته ، وهو يقول :

ـ إنك تريد منى أن استخدم قواتى الخاصة ؛ لشن ذلك الهجوم الشامل .. أليس كذلك ؟!

أشاح الوزير بوجهه ، متحاشيًا النظر إليه ، وهو يقول :

ـ لقد بدا لنا حلاً مثاليًا .

قال مستر (X) فى سرعة :

ـ لمن ؟!

صمت الوزير لحظة ، ثم أجاب فى حدة شديدة :

ـ إنك ترغب فى التعاون مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولهذا ثمنه .. أليس كذلك ؟!

قال مستر (X) فى صرامة :

ـ لو لم تكونوا بحاجة إلىّ ، مثلما أنا بحاجة إليكم ، لما حركتم إصبعًا واحدًا لمساعدتى ، وكلانا يعرف هذا تمام المعرفة .

كان من الصعب جداً أن يزدرد الوزير لعابه ، في هذه المرة ، مع الغصة التي شعر بها في حلقه ، وهو يقول في صوت مختنق :

ـ إنه عرضنا .. اقبله أو ارفضه .

تراجع مستر (X) في مقعده ، وعلى الرغم من وجهه الغارق في الظلام ، فقد شفّ صمته الطويل عن تفكير عميق ، قبل أن يقطعه ، قائلاً في حزم :

ـ هل حددتم موقعها بعد ؟!

أجابه الوزير في توتر :

ـ خبراؤنا في سبيلهم إلى هذا .

هز مستر (X) رأسه ، ثم قال في عمق :

ـ أنا حددته .

لم يستطع الوزير كتمان انفعاله هذه المرة ، وهو يثب من مقعده ، هاتفاً بكل قوته :

ـ حقاً ؟!

أجابه مستر (X) ، في هدوء واثق :

ـ نعم .. حقاً أيها الوزير .

ثم اعتدل في مقعده ، مستطرداً :

ـ لقد قامت مقاتلاتها باختطاف تلك الطائرة العسكرية ، التي كانت تنقل بوساطتها فريق المخابرات المصرية إلى (جوانتانامو) ، وأجبرتها على الاتجاه إلى مقرها السري ، في قلب واحدة من جزر المحيط الأطلنطي .

سأله الوزير بنفس الانفعال :

ـ وهل .. وهل تبعتم مقاتلاتها إلى هناك ؟!

أجابه مستر (X) ، في صوت حمل رنة ساخرة :

ـ بل فعلنا ما هو أكثر بساطة .. لقد دسسنا أجهزة تعقب في طائرتكم ؛ لأننا كنا نعلم أنها ستقوم باختطافها حتماً ، ما دامت تضم رفاق خصمها اللدود (أدهم صبري) ، فهم بالنسبة لها ، أحد أهم أسلحتها ؛ للسيطرة عليه ، وكبح جماحه .

انعقد حاجبا الوزير ، وسرى الغضب في كيانه ، لأن الفكرة لم ترد بخاطره ، وغمغم في حدة :

ـ من الواضح أنكم تسبقوننا دوماً بخطوة ، يا مستر (X) !

تجاهل مستر (X) قوله هذا تماماً ، وهو يقول :

- وبالإضافة إلى مدفعها الليزرى الفضائى ، الذى مازالت تسيطر عليه ، عبر مركز تحكم أرضى كامل ، فى عمق تلك الجزيرة ، فقد زودتها بشبكة متكاملة من الصواريخ الدفاعية ، والصواريخ المضادة للصواريخ .. شبكة أحدث كثيرًا من تلك التى تستخدمونها ، لحماية حدودكم ، والتى تسببت عيوبها فى إصابة طائرة مصرية بصاروخ خاطئ ، و ....

قاطعه الوزير فى عصبية :

- هل تعنى أن الهجوم الشامل مستحيل ؟!

صمت مستر (X) لدقيقة كاملة ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قبل أن يقول فى حزم :

- أنا لم أقل هذا .

هتف الوزير فى لهفة :

- هل تعنى أن ...

قاطعه مستر (X) فى صرامة :

- نعم .. أيها الوزير .. سنشن الهجوم الشامل ، على وكر الزعيمة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- ولكن بأسلوب جديد .. جديد تمامًا ..

ولم يفهم الوزير ما يعنيه مستر (X) ، فقد نطق عبارته الأخيرة بلهجة غامضة ..

غامضة للغاية ..

* * *

على عكس كل توقعات الزعيمة ومخاوفها ، بدا (أدهم) مستسلمًا تمامًا ، على خلاف طبيعته الأصلية ، وهو يجلس داخل سيارة خاصة ، أشبه بسيارات ملاعب الجولف ، تنقله عبر ممرات القلعة السرية للزعيمة ، فى قلب الجزيرة ، إلى قسم الطوارئ الطبية ..

كان الجنود الأشداء يصوبون فوهات مدافعهم إلى رأسه ، فى تحفز حقيقى ، إلا أنه راح يتطلع إليهم فى حيرة ، وكأنما فقد تمييزه للأشياء ، فغمغمت الزعيمة فى حجرتها ، وهى تراقب المشاهد ، على شاشات الرصد :

- مستحيل ! لا يمكننى أن أصدق أبدًا أن هذا الشخص البائس المدعو ، هو نفسه (أدهم صبرى) ، الذى يتفجر دومًا بالحيوية والنشاط ، مستحيل !

كانت السيارة قد بلغت قسم الطوارئ الطبية بالفعل ، فقالت (تيا) فى لهجة آمرة ، وهى تغادر السيارة :

ـ هيا .. لقد وصلنا .

أطاعها (أدهم) بنفس الاستسلام السلبى ، ودلف معها ، محاطًا بالجنود الأشرار ، إلى قسم الفحص المغناطيسى للمخ ، حيث استقبله الطبيب المسئول ، وهو يقول للجنود :

ـ حلوا قيوده .

بدا التوتر على وجه الجنود ، فى حين قالت (تيا) فى صرامة :

ـ أوامر الزعيمة ألا تحل قيوده قط .

هزّ الطبيب رأسه فى قوة وإصرار ، قائلاً :

ـ هذا ليس اختيارًا .. الأجهزة هنا لن تعمل بكفاءة ، لو تواجدت أية أجسام معدنية داخلها .

بدت الحيرة على وجه (تيا) ، وأدارت عينيها إلى آلة المراقبة ، وهى تقول :

ـ والآن ماذا أيتها الزعيمة ؟!

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها ، فى عصبية شديدة ، وهى تعتصر ذهنها بكل طاقتها ؛ لاتخاذ قرار حاسم فى هذا الشأن ..

إنها تحتاج إلى معرفة حقيقة ما أصاب (أدهم) ، الذى توحى كل لمحاته وحركاته وسكناته ، بأن شيئًا ما قد أتلف جزءًا من خلايا تلافيف مخه ..

وهذا يحتم تحريره تمامًا ..

نزع قيوده ، وأغلاله ، وحتى ذلك السوار الإليكترونى المحيط بمعصمه ..

وفى هذا مخاطرة ..

مخاطرة رهيبة ..

إلى أقصى حد ..

ولكن الأمر لا يحتمل التأجيل أو التأخير ..

لابد أن تحسم هذا الموقف حالاً ..

وبأقصى سرعة ..

لذا ، فستقبل بالمجازفة ..

المجازفة المحسوبة ..

«فليكن ..»

نطقتها عبر أجهزة الاتصال ، وهى تعتدل فى حزم صارم ، وتنفث دخان سيجارتها مرة أخرى ، ثم تابعت بلهجة آمرة :

ـ ولكن الجنود سيبقون ، وستظل فوهات مدافعهم مصوبة إلى رأسه ، ومتحفزة طوال الوقت ، مع نفس الأوامر بإطلاق النار ، عند أول لمحة شك .

قال الطبيب محذرًا :

ـ وجودهم هنا قد يعرضهم لبعض الخطر .

أجابته فى صرامة :

ـ إنهم يتقاضون أجورًا باهظة ، مقابل مواجهتهم للخطر .

زفر الطبيب ، قائلاً :

ـ كما تأمرين أيتها الزعيمة .

تحفز الجنود على نحو واضح ، وهم يصوبون فوهات مدافعهم الآلية ، نحو رأس (أدهم) مباشرة ، فى أثناء حل قيوده ، وشعرت (تيا) بكل عضلة فى جسدها تتوتر وتتقبض ، استعدادًا لقتال محتمل ، أما الزعيمة نفسها ، فقد اعتدلت فى مقعدها ،

وراحت تنفث دخان السيجارة الطويلة فى عصبية بالغة ، فى انتظار لحظة الذروة ، عندما تتم إزالة السوار الإليكترونى الأمنى ..

فلو أن كل ما يفعله (أدهم) ، مجرد خدعة ، بلغت ذروة الإتقان ، فهذه هى اللحظة المناسبة تمامًا للتخلى عنها ، واستعادة وجهه الحقيقى ..

لحظة نزع السوار الأمنى ..

وكان الكل يدرك هذا !

الزعيمة ..

و (تيا) ..

والجنود الخمسة الأشداء ..

كلهم ترقبوا ..

وتحفزوا ..

وانتظروا ..

واحتبست أنفاسهم جميعًا ، مع نزع السوار عن معصم (أدهم) ، و ....

ولكن شيئًا لم يحدث ..

لقد ظل كما هو ..

حائرًا ..

مستسلمًا ..

مضطربًا ..

وفى هدوء وبساطة ، قاده الطبيب نحو جهاز الفحص ، وهو يقول :

ـ سيستغرق الأمر بعض الوقت ، ولكنك لن تشعر بأية آلام .

غمغم (أدهم) ، فى استسلام تام :

ـ بالتأكيد .

وهنا .. هنا فقط ، تنفس الجميع الصعداء ، واسترخت أعصابهم ، وهزت الزعيمة رأسها فى مكمنها ، مغمغمة فى أسى حقيقى :

ـ يا للخسارة يا (أدهم) .

لم تكن غمغمتها قد اكتملت بعد ، عندما اعتدل جسد (أدهم) بحركة قوية مباغتة ، وهو يكمل ، فى لهجة حملت كل سخرية الدنيا :

ـ ولكنهم هم سيشعرون .

ومع قوله ، خُيِّل إليهم جميعًا أنه قد وثب عبر الحجرة كلها ..

بل طار كنسر هائل مقدام ، ليهبط بين الجنود الخمسة ، مكملاً بنفس السخرية اللاذعة :

ـ وبكل الألم .

شهقت (تيا) فى قوة ، وهى تتراجع بحركة حادة ، أمام ذلك الإعصار المدمر ، الذى تفجر وسط الجنود الخمسة ، فى سرعة لم تشهد مثلها فى حياتها قط ، وهى التى قضت عمرها كله ، تتدرب على أحدث وسائل القتال ..

إنها لم تر حتى ما فعله (أدهم) بالضبط ..

كل ما رأته هو أحد الجنود الخمسة ، يطير عبر الحجرة ، ويرتطم بالجدار بمنتهى العنف ، والثانى يدور حول نفسه ، ثم يضرب رأسه الأرض فى قوة ، وأسنان الثالث تتطاير على نحو مخيف ، فى نفس الوقت الذى تتفجر فيه الدماء فى غزارة ، من أنف وفك الجنديين المتبقيين ..

الزعيمة نفسها ، انتفض جسدها كله بمنتهى العنف ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وسقطت سيجارتها من بين

أصابعها ، وهى تهبّ من مقعدها فى ارتياع ، صارخة فى انفعال ، كانت تتصوّر أنها لن تبلغ مثله أبدًا :

ـ مستحيل !

وفى اللحظة التالية مباشرة ، كان (أدهم) يختطف أحد المدافع الآلية ، ويدير فوهته نحو آلة المراقبة ، ويطلق النار ..

ثم انقطعت الصورة على تلك الشاشة تمامًا ..

وانتفض جسد الزعيمة مرة أخرى ..

وبعنف أكثر ..

ومرارة أكثر وأكثر ..

لقد فعلها (أدهم) مرة أخرى ..

خدعها ببراعة مذهلة ، يستحق عليها الفوز بجائزة الأوسكار السينمائية ..

ألف مرة ..

خدعها ، عندما تصوّرت أنها قد بلغت قمة الانتصار ..

وقمة البراعة أيضًا ..

خدعها ..

خدعها ..

خدعها ..

صرخت بالكلمة ألف مرة فى أعماقها ، وهى تنتفض ..

وتنتفض ..

وتنتفض ..

ثم تجمّع كل غضبها وثورتها وانفعالها فى صرخة واحدة قوية :

ـ لا .. لن تنتصر علىّ يا (أدهم) .. لن تنتصر هذه المرة أبدًا ..

وارتجّ جسدها كله بمنتهى العنف ، وهى تضيف بصرخة زلزلت كيانها :

ـ أبدًا .

كان الغضب الهادر يتفجّر ، فى كل خلية من جسدها ، ولكنها لم تكن تدرك ، أن الثوانى القليلة ، التى أضاعتها فى جمودها وغضبها ، استغلها (أدهم) على نحو لم يخطر ببالها قط ..

ففور إطلاقه النار على آلة المراقبة ، اندفع نحو (تيا) ، ودفعها أمامه ، قائلاً فى صرامة آمرة :

– حقيرتك تستعد الآن لسحق عاصمة دولتى ، وهذا يعنى أن حياتك لن يكون لها أدنى وزن بالنسبة لى ، عندما أقاتل لمنعها من هذا .

اندفعت أمامه ، إلى حجرة الطوارئ الأساسية ، وهى تقول فى انفعال شديد :

– اطمئن .. لن أحاول حتى مقاومتك .

رفع فوهة مدفعه فى سرعة ، ونسف آلة المراقبة ، فى حجرة الطوارئ الطبية الرئيسية ، وهو يهتف بطاقم الأطباء والعاملين فى صرامة :

– هيا .. خارجاً .. لقد انتهت فترة العمل .

تدافعوا لمغادرة المكان فى ذعر ، فى حين اندفع هو نحو رسام قلب رقمى ، ودفع مائدته المعدنية الثقيلة ، إلى إطار باب الحجرة ، قبل أن يجذب جهاز الصاعق الكهربى ، الذى يستخدم لإنعاش القلوب المتوقفة ، فى الأزمات القلبية الحادة ، ويدفعه أمامه ، نحو آلة المراقبة المحطمة ، و(تيا) تقول فى ارتياح عجيب :

– لايمكنك أن تتصور كم يسعدنى أنك قد أتلفت نظام المراقبة هنا ؛ فلو أن الزعيمة تراقبنا الآن ، لكنت مضطرة لمقاتلتك من أجلها .

كان ينتزع أسلاك آلة المراقبة ، ويوصلها بصاعق القلب الكهربى ، وهو يقول ساخراً :

– وماذا عن الآن ؟!

هزت كتفيها فى دلال ، وهى تقول :

– سأنضم إليك .

رمقها بنظرة جانبية ساخرة ، قبل أن يضغط زر الصاعق الكهربى ، قائلاً :

– أما زلت تصرين على تقليد أفلام (جيمس بوند) ؟!

راقبت ما يفعله فى إعجاب ، وهى تجيب :

– إننى أعشقها منذ حداثتى .

مع ضغطته ، انطلقت الصاعقة الكهربية إلى شبكة المراقبة ، فتفجرت منها شرارات عنيفة ، فى شتى أنحاء القلعة ، قبل أن تتوقف الشبكة عن العمل تماماً ..

وفى غضب هادر، هتفت الزعيمة :

ـ إنك تكرر نفسك يا (أدهم) .. أما أنا، فلا .. شبكة المراقبة الاحتياطية، التى أمرت بإعدادها، ستبدأ عملها خلال عشر دقائق فحسب .

نطقتها، وهى تعض على شفتيها بكل غضب ومرارة الدنيا، فهى تعرف، أكثر من غيرها، كم تساوى هذه الدقائق العشر، بالنسبة لرجل مثله .. رجل مثل (أدهم صبرى) ..

لذا فلابد وأن تتخذ كل الإجراءات الاحتياطية فوراً ..

وإلى الحد الأقصى ..

لابد أن تعزل منطقة الطوارئ الطبية، عن باقى القلعة ..

وأن تحشد جنودها لمطاردته ..

وأن تعمل على حماية قاعة التحكُّم الرئيسية ..

وقاعة إطلاق الماسة الكبرى ..

وبأى ثمن ..

وستلعب بكل ورقة رابحة فى يدها ..

كل ورقة على الإطلاق ..

ومهما كانت ..

وفى حدة غاضبة، ضغطت أحد أزرار جهاز الاتصال الاحتياطى، قائلة فى صرامة :

ـ إلى أى حد يمكن تقديم ساعة الإطلاق .

أجابها مسئول السلاح فى سرعة :

ـ الكمبيوتر يقول : إنه يمكننا توجيه الضربة الأولى، خلال ثلاث وعشرين دقيقة فحسب، إلا أن هذا سيضطرنا إلى الانتظار فترة أطول لإعادة الشحن، قبل توجيه الضربة الثانية .

قالت، والغضب يعربد فى صوتها :

ـ فليكن .. كل ما أنشده الآن هو الضربة الأولى .. أريد سحق (القاهرة) سحقاً، فى الموعد الذى حدده الكمبيوتر بالضبط .. لا دقيقة واحدة إضافية .

أجاب مسئول السلاح فى حزم :

ـ كما تأمرين أيتها الزعيمة .

أنهت الاتصال وعادت تضغط عدداً من الأزرار، فى لوحة التحكُّم أمامها، وهى تقول فى صرامة غاضبة :

ـ سترى يا (أدهم) .. سترى أنك لن تنتصر علىَّ هذه المرة بالذات .. لن تنتصر أبداً .

في نفس اللحظة ، التي نطقت فيهـا عبارتها الغاضبة ، كانت الحواجز المعدنية تنزلق ؛ لتعزل جناح الطوارئ الطبي ، والممرات المتصلة به ، عن باقي القلعة ، فهتفت (تيا) :

ـ إنها لن تسمح لك بالفوز .

جذبها (أدهم) من يدها ، وهو يقول في حزم :

ـ يمكنها أن تفعل كل ما يوسعها .

ثم ابتسم في سخرية ، مستطرداً :

ـ المهم أن تفلح .

انتبهت (تيا) ، في هذه اللحظة ، إلى رسام القلب الرقمي ، ومائدته المعدنية الثقيلة ، اللذين اعترضا طريق تلك الحاجز ، عند حجرة الطوارئ ، فاتسعت عيناها في إعجاب وانبهـار ، وهي تهتف :

ـ كنت تتوقع هذا ؟!

دفعها (أدهم) نحو الفراغ ، الذي تصنعه المـائدة الثقيلة تحت الحاجز المعدني القوي ، وهو يقول :

ـ ولماذا تعتمد حقيرتك إلى تغيير أسلوبها ، وهي تظنه مثاليا تماماً .

وثبت هي تتدحرج عبر الفراغ ، وانتظرت أن يلحق بها ، إلا أنه لم يفعل ، فهتفت في قلق :

ـ أين أنت ؟!

غاب لبضع ثوان ، والمائدة المعدنية تنهار تحت الحـاجز القـوي رويداً رويداً ، ثم لم يلبث أن ظهـر ، ليتدحرج في مرونة مدهشة ، عبر ما تبقى من الفراغ ، ووثب واقفاً على قدميه ، فاتسعت عيناها ، وهي تقول :

ـ هل عدت لجمع الأسلحة ؟!

أجابها في هدوء ساخر :

ـ هؤلاء الأوغاد في الداخل ، لن يمكنهم الاستفادة منهـا قريباً .

مع آخر قوله ، انهارت المائدة المعدنية تماماً ، تحت الحاجز الثقيل ، الذي واصل هبوطه ، حتى احتجزته بقاياها المسحوقة ، على ارتفاع سنتيمترات قليلة عن الأرض ..

وفي اللحظة نفسها ، تعالى وقع أقدام عدد كبير من جنود الزعيمة ، وهم يعدون نحو المكان من الناحيتين ..

وكان هذا يعني أن (أدهم) قد صـار محاصراً ، دون سبيل واحد للفرار ..

أي سبيل .

٦ ـ الوحوش ..

« إنها ضربة مزدوجة بارعة .. »

نطق وزير الدفاع الأمريكي العبارة ، وهو يتلفت حوله فى حذر بالغ ، داخل ملعب الجولف الكبير ، الذى وقف فيه الرئيس الأمريكى فى توتر ، يستمع إليه وهو يتابع :

ـ مستر (X) سيحشد كل قواته ، ليشن هجومًا شاملاً على الزعيمة الحقيرة .. ومن الطبيعى أن يتحمل هو تبعات الموقف كله ، فى حالة فشل الهجوم ، الذى لن نكون مضطرين لتبريره ، باعتبار أنه لا شأن لنا به ، من الناحية الرسمية .. أما لو نجح الهجوم ، فسنكون قد تخلصنا من تلك الحقيرة ، ولم يعد أمامنا سوى مستر (X) وحده .

سأله الرئيس بنفس التوتر :

ـ وهل سنواجهه بعدها ؟!

أشار الوزير بيده ، قائلاً :

ـ لن تكون مواجهة قاسية ، كمواجهتنا مع تلك الحقيرة ، خاصة وأنه سيكون قد استهلك معظم قوته وقواته ، فى صراعه معها .

بدت مستشارة الأمن القومى أشبه بصورة مجسمة للبغض والكراهية ، وهى تقول :

ـ هناك احتمال آخر ، لست أظنه قد جال بخاطركم لحظة واحدة .

سألها الوزير فى اهتمام قلق :

ـ وما هو ؟!

أجابته فى حدة ، لم يكن لها حتمًا ما يبررها :

ـ أن ينتصر مستر (X) فى المعركة ، بوسيلة ربما نجهلها تمامًا ، ويفوز بكل ما تملكه تلك الزعيمة ، من تكنولوجيا وأسلحة ومعدات ، وعلى رأسها ذلك السلاح المسلى الرهيب ، الذى باستطاعته إخضاعنا إلى الأبد .. عندئذ تكون قد استبدلنا خصمًا بخصم ، ولا أحد يدرى ، أيهما يمكن أن يكون أكثر شراسة وخطورة .

غمغم الرئيس فى عصبية :

ـ هذا الاحتمال يرعبنى حقًا .

هز الوزير رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلا أيها الرئيس .. خبراؤنا درسوا شخصية تلك الزعيمة جيدًا ، وبرمجوا الكمبيوتر بأسلوبها ، وقراراتها ، وردود أفعالها ، ثم توصلوا إلى نتيجة حاسمة .

والتقط نفساً عميقاً متوتراً ، قبل أن يضيف :

ـ إنها لن تنهزم أبداً .

حدق فيه الرئيس الأمريكى فى ارتياع ، جعله يستدرك فى سرعة :

ـ لست أعنى أنها غير قابلة للانهزام ، وإنما أنها لن تقبل به أبداً .

قال الرئيس فى حدة :

ـ هل لى فى مزيد من التوضيح ؟!

أجابه فى توتر :

ـ باختصار .. ستفضل أن تنسف مقرها كله ، بكل ما فيه ومن فيه ، على أن تقع فى قبضة خصومها .

انعقد حاجبا مستشارة الأمن القومى ، وهى تقول :

ـ هراء .. إنها لن تقدم على هذا أبداً ، فهى من هذه الناحية تشبه.....

بترت عبارتها بغتة ، قبل أن تعلن تشابهها معها ، ثم استدركت فى سرعة :

ـ تشبه معظم المبتزين .. ربما تنسف كل شىء ، ولكنها ستترك خيطاً حتماً لإنقاذ نفسها .. تماماً مثلما فعل مستر (X) ، عندما هاجمت هى مقره السرى .. ممر هروب ، لا يعلم به أحد ، يخرجها من قلب الجحيم ، فى اللحظة الأخيرة .

لوّح الوزير بيده ، قائلاً : فى عصبية :

ـ المهم أنها ستنسف كل شىء خلفها ، فى كل الأحوال ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين خاص ، من هاتفه المحمول ، فالتقطه من جيبه بحركة عصبية سريعة ، وألقى نظرة على شاشته ، قائلاً :

ـ إنها رسالة من مستر (X) .

وازدرد لعابه فى صعوبة ، متمتماً :

ـ لقد بدأ الهجوم الشامل .

ولم ينبس الرئيس أو مستشارته بحرف واحد ..

ولكن وجهيهما امتقعا على نحو عجيب ..

فقد كان هذا يعنى بداية الجولة الحاسمة ..

والأخيرة ..

* * *

فركت (منى) كفيها بمنتهى العصبية ، وهى تسير داخل تلك الزنزانة الإليكترونية الواسعة ، قائلة فى مرارة :

ـ لابد وأن نفعل شيئاً .. أى شىء .. لايمكن أن نترك (أدهم) فى هذه الحالة أبداً .

شدّ (شريف) قامته ، وهو يقول :

ـ لاتقلقى على الأستاذ أيتها القائد .

وأضافت (ريهام) فى حزم :

ـ إنه يعرف ما يفعله جيّداً .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تحدّق فى وجهيهما ، فى حين قال (قدرى) فى اهتمام ، وهو يشير بيده :

ـ إننى أتفق معكما .

أدهشها أن يشعر الكل بالاطمئنان والثقة فيما عداها ، وخفق قلبها فى قوة ، وهى تهم بسؤالهم عما يدور فى أعماقهم ، ولكن (قدرى) تابع بنفس الاهتمام :

ـ خبرتى علمتنى أن الوثيقة الصحيحة ، لايمكن أن تبدو أبداً زائفة ، فى حين أن العكس صحيح تماماً .

ثم داعب شفتيه بلسانه ، مضيفاً :

ـ كذلك الشطيرة الطازجة ، لايمكن أن تبدو فاسدة أبداً ،

أما الفاسدة ، فقد تبدو سليمة ، لو أنها ملوّثة فحسب ، ولم تبلغ مرحلة التلف بعد .

كانت (منى) تفهم تماماً ما يعنيه ..

وما يشير إليه ..

قلبها وعقلها كانا يؤيدان النظرية نفسها ..

لايمكن أن يكون (أدهم) قد تحوّل إلى ذلك الشىء ، الذى رأوه جميعاً على الشاشة أمامهم ..

إلا لو أنه يتعمد هذا ..

وهذا يعنى أن كل ما رأوه مجرّد خدعة ..

خدعة عبقرية مبتكرة ، أبدعها عقل (أدهم) المتطوّر ، وصنعتها سعة حيلته ، التى لاحدود لها ، ليتجاوز الأسوار ..

وينقضّ على الخصوم ..

وعلى الرغم من ثقتها الشديدة فى هذا ، لم تستطع منع قلبها من الارتجاف بين ضلوعها لحظة واحدة ..

فبالنسبة إليها ، لم يكن (أدهم صبرى) مجرّد رجل مخابرات فذ ، شاركته أقوى وأعنف العمليات ، وواجهت

إلى جواره أشرس أجهزة المخابرات ، وأكثر التنظيمات الإجرامية والجاسوسية ، طوال سنوات من المغامرات المثيرة المدهشة ..

إنه أكثر من هذا بكثير ..

إنه الصديق ..

والزميل ..

والحبيب ..

الحبيب ، الذى لم يخلق قلبها لسواه ، أو تختلج عواطفها لمن عداه ..

الحبيب الذى قاتل من أجلها ..

وصارع لحمايتها ..

وبذل كل غال وثمين فى سبيلها ..

إنه رجل حياتها وقلبها ..

رجلها الوحيد ..

لذا ، فقد كررت ، بكل ما يشتعل فى أعماقها :

ـ لابد وأن نفعل شيئًا .

تبادل (شريف) و(ريهام) نظرة أسى ، قبل أن يقول الأول فى مرارة :

ـ للأسف أيتها القائد .. نحن هذه المرة أشبه بطير حبيس ، لا يملك وسيلة واحدة للفرار ، على الرغم من كل ما نمتلكه من مواهب وإمكانيات .

وأضافت (ريهام) فى أسى :

ـ ليس علينا إذن سوى أن ننتظر ..

أكمل (قدرى) :

ـ ونأمل .

ولم يضف أحدهم بعدها حرفًا واحدًا ..

على الإطلاق ..

* * *

« من هنا .. »

هتفت (نيا) بالكلمة فى حماس ، وهى تضغط جزءًا من جدار الممر ، المواجه تمامًا لباب قسم الطوارئ الطبية ، فانزاح الجدار فى نعومة ، كاشفًا ممرًا آخر ، تضيئه مصابيح خافتة ، واندفعت هى إليه ، هاتفة :

ـ هيا .. أسرع .

أمسكها (أدهم) من ذراعها فى قوة ، وهو يقول :

ـ مهلاً يا (تيا) .

استدارت إليه بنظرة إعجاب مبهورة ، فتابع فى صرامة :

ـ طبيعتى الشخصية تمنعنى من أن أتبع أى مخلوق ، إلى مكان أجهله ، دون أن أعرف حتى إلى أين يقودنا هذا .

تطلّعت إلى عينيه مباشرة ، وهى تقول :

ـ إننى أحاول إثبات ولائى فحسب .

سألها بمنتهى الصرامة :

ـ لمن ؟!

أجابته ، وهى تقترب منه فى دلال :

ـ لك بالطبع أيها الوسيم .

كان وقع الأقدام الثقيلة لجنود الزعيمة يقترب أكثر وأكثر ، من الجانبين ، لذا فقد دفعها داخل ذلك الممر السرى ، ووثب خلفها ، وضغطت هى جزءاً من داخل الممر ، فانزلق الجدار مرة أخرى ، يخفيه عن الأنظار ، وهو يسألها :

ـ أين نحن بالضبط ؟!

أجابته فى سرعة ، وهى تسير عبر الممر :

ـ إنه واحد من الممرات السرية العديدة ، التى أنشأتها الزعيمة هنا ، والتى لا يعرف بوجودها سواها ، وسواى أيضًا ، باعتبارى مساعدتها الأولى .

سألها فى اهتمام :

ـ هل تعرفين كل الممرات السرية هنا ؟!

هزّت رأسها نفيًا ، وهى تجيب :

ـ ليس كلها .. هناك ممرات ومخارج سرية ، ونظم أمن إليكترونية معقدة ، لا يعلم بها سواها .

كانت تتحدث ، وهى تندفع عبر الممر فى سرعة ، فأمسك (أدهم) ذراعها مرة أخرى ليستوقفها ، قائلاً :

ـ ولكن لماذا يا (تيا) ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ لتؤمّن لنفسها سبل الفرار ، إذا ما تعقّدت الأمور بالتأكيد .

قال فى صرامة :

ـ ليس هذا ما قصدته .. كنت أسألك : لماذا انتقل ولاؤك إلىّ فجأة ، ودون أسباب واضحة ؟!

تطلعت إلى عينيه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن تجيب فى حزم :

ـ اعتدت دوماً أن انحاز للطرف الأكثر قوة ، وأنت تفوقت على نفسك إلى حد مبهر ، فى خدعتك الأخيرة هذه .. لقد أربكتنا جميعًا ، ودفعتنا لإخراجك من زنزانتك ، للتيقّن من سلامة خلايا مخك ، و ...

قاطعها بنفس الصرامة :

ـ أهذا هو السبب الوحيد ؟

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى توتر :

ـ لم أعد أثق فيها أيضًا .. لقد قتلت قائد قواتها بمنتهى الحقارة ، عندما انتفت حاجتها إليه ، وليس هناك مـا يمنعها من أن تفعل المثل معى يومًا ما .

قال فى شىء من القسوة :

ـ ومن يضمن لك ألا أفعل مثلها ؟!

عادت تتطلع إلى عينيه مباشرة ، وهـى تهز رأسـها فى بطء ، قائلة :

ـ مثلك لا يمكن أن يفعل هذا.

تطلّع هو إلى عينيها مباشرة هـذه المرة ، وكأنما يسبر أغوارها جيدًا ، قبل أن يسألها فى صرامة :

ـ أين رفاقى يا (تيا) ؟!

حاولت أن تخفى غيرتها فى أعماقها ، وهى تقول :

ـ تصورت أنك ستسألنى عن موقع قاعة التحكّم الرقمى الشاملة ، التى تسيطر على مسار الأقمار الصناعية ، وعلى مدفع الليزر الفضائى .. أو حتى عن موقع العاصفة الكبيرة ، التى ستسحق عاصمة دولتك ، خلال أقل من ساعة واحدة .

قال فى حزم :

ـ إذا ماتحرّر رفاقى ، سنصبح أشبه بجيش صغير مدرّب ، لا يمكن التغلّب عليه بسهولة ، وسيصبح تحقيق الأهداف الأخرى حينئذ أكثر احتمالاً .

حدقت فى وجهه مبهورة ، وهى تسأله :

ـ أأنت دائمًا مثالى هكذا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ التاريخ علّمنى هذا .

رددت بمنتهى الدهشة :

ـ التاريخ ؟!

أجابها فى حزم أكثر :

ـ تاريخ الفتوحات الإسلامية ، يشير إلى أن العرب قد تفوقوا على أعدائهم ، بالتزامهم بالمبادئ والقيم ، والأصول السليمة ، التى تحثهم عليها عقيدتهم وحضارتهم ، وأن هذا ما بهر أعداءهم ، وأتاح لهم النصر دومًا .. باختصار التاريخ القديم لدينا ، لم يعتمد المبدأ المكيافيللى قط[*] .

هتفت ، بكل انبهار الدنيا :

ـ أنت مدهش .

أمسك كتفيها فى قوة ، مكررًا :

ـ أين رفاقى ؟!

أشارت بيدها ، وهى تقول بمنتهى الحماس :

ـ اتبعنى .

(*) (نيكولو مكيافيللى) : (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م) : سياسى ومؤرخ إيطالى ، وأحد أعلام عصر النهضة فى (أوروبا) ، عُرف فى السياسة بكتابه الأشهر (الأمير) (١٥١٣م) ، والذى يعتمد مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ، الذى يؤيِّد الحكم المطلق ، ويبيح للحاكم اتخاذ كل السبل المشروعة وغير المشروعة ، للبقاء فى السلطة .

قالتها ، وانطلقت تعدو عبر الممرات السرية المتصلة ، وهو يعدو خلفها ، حتى بلغا منطقة تحوى أجهزة رصد واتصالات محدودة ، فتوقفت هى عندها ، قائلة فى حماس :

ـ شبكة الرصد الاحتياطية ستبدأ عملها ، بعد ثلاث دقائق فحسب ، وخلف هذا الجدار ستجد ممرًا طويلاً ، يقود إلى زنزانة رفاقك مباشرة .. اقتحامها لن يكون سهلاً أو بسيطًا ، فالزعيمة تتوقَّع أنك ستسعى لتحريرهم حتمًا .. لذا فستجد جيشًا من الجنود هناك ، والزنزانة نفسها منيعة إلى حد مخيف ، و ...

قبل أن تتم عبارتها ، وقع بصرها على شاشة صغيرة جانبية ، فشهقت هاتفة :

ـ لقد .. لقد قدَّموا موعد إطلاق الماسة الكبيرة .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يحدِّق فى تلك الشاشة الصغيرة ، فى حين استطردت هى فى توتر :

ـ ستنطلق الشحنة الأولى ، لتسحق عاصمة دولتك ، خلال ست عشرة دقيقة فحسب ..

وازداد انعقاد حاجبى (أدهم) أكثر وأكثر ..

فالموقف ، فى هذه الحالة ، لن يكفى لتحرير رفاقه ، والسعى بعدها لإيقاف ذلك السلاح الرهيب ، قبل أن يضرب ضربته ..

لابد وأن يختار إذن ..

إما رفاقه ..

أو (مصر) كلها ..

وعلى الرغم من ذلك الألم الرهيب، الذى اعتصر قلبه اعتصاراً، لم يكن أمام (أدهم) اختيار حقيقى ..

وبكل الحزم والصرامة، أمسك كتفى (تيا)، هاتفاً :

ـ الهضبة الكبيرة .. قودينى إلى حيث الهضبة الكبيرة فوراً ..

بدا شىء من الذعر فى عينى (تيا)، قبل أن تهتف، على نحو يوحى بأنها قد حسمت أمرها :

ـ هيا بنا .

وعادا ينطلقان مرة أخرى، عبر الممرات السرية، والوقت يمضى فى سرعة مخيفة ..

ويمضى ..

ويمضى ..

* * *

« آلة المراقبة هذه لاتعمل .. »

نطقت (ريهام) العبارة فى حماس، وهى تشير إلى آلة المراقبة الرقمية، فى ركن الزنزانة، فاستدارت العيون كلها إلى الآلة فى لهفة، فى حين تابعت هى فى حزم :

ـ مصباحها لم يعد مضاءً، ولقد توقفت حركتها ..

التقى حاجبا (شريف)، وهو يقول :

ـ أيعنى هذا أنهم لايراقبوننا الآن ؟

التقطت (ريهام) أحد أزرار ثوبها، وهى تقول :

ـ بالتأكيد .. وهذا يعنى أيضاً أن نعمل فى سرعة، لاستغلال كل ثانية .

هتف (قدرى) فى حماس :

ـ هل تخفين شيئاً ؟!

أجابه (شريف)، وهو ينزع ساعة معصمه، التى تبدو عادية المظهر :

ـ بل أشياء .

أخرجت (ريهام) بضع وريقات من جيبها، وهى تقول :

ـ كل ما يحتاجه الأمر، هو بعض المعلومات الجيدة، عن عالم الكيمياء، وأصابع دقيقة ماهرة .

نهض (قدرى)، وهو يلوّح بأصابعه، قائلاً فى حماس :

ـ فى هذا المضمار، وتحت هذه الظروف .. لن تجدى أكثر دقة ومهارة من أصابعى يا عزيزتى .

هتف (شريف) :

ـ عظيم .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت الزعيمة تعقد حاجبيها ، فى توتر شديد ، وتنفث دخان سيجارتها فى عصبية ، وأحد رجالها يقول ، عبر جهاز الاتصال الاحتياطى المحدود :

- لايوجد أى أثر له أيتها الزعيمة ، فى كل ممرات القلعة .. حتى (تيا) ، لايمكننا العثور عليها .. إننا لاندرى حتى أين اختفت معه .

انطلق عقل الزعيمة يعمل فى غضب وسرعة ، قبل أن تغمغم ، بكل مقت وغضب الدنيا :

- (تيا) .

ثم ضغطت زر اتصال آخر ، لتسأل أحد مسئولى قسم الرصد :

- هل ترتبط المجسات الحرارية بنظام الرصد المعطل ؟!

أجابها الرجل فى سرعة :

- نعم للأسف أيتها الزعيمة ، ولكن كل شىء سيعود للعمل ، خلال دقيقة واحدة فحسب ..

بدت غاضبة ساخطة ، وهى تقول :

- لايمكنك أن تتصور مايمكن أن يحدث ، خلال دقيقة كاملة .

أنهت الاتصال ، وتراجعت فى مقعدها ، تنفث دخان سيجارتها ، وتفكر فى عمق ، قبل أن تغمغم ، فى حزم وصرامة :

- فليكن .. سنضحى بكل الممرات السرية ، من الفئة (ب) ، لو أن هذا سيخلصنا منك يا (أدهم) .

وأزاحت الغطاء عن مجموعة خاصة من الأزرار ، وتطلعت إليها لحظة ، قبل أن تضغط أحدها فى حزم وقوة ، مضيفة :

- ومنك أيضًا يا (تيا) .

فى هذه الأثناء ، كانت (تيا) قد توقفت عند أحد مخارج الممر السرى ، وهى تلهث ، قائلة :

- ها هو ذا ! هذا المخرج يقود إلى القاعة الخاصة ، التى تحوى الماسة الكبيرة .. ستكون محاطة حتمًا بحراسة بالغة ، وبوسائل تأمين وحماية ، آلية وإليكترونية ، لاقبل لك بها .

ألقى نظرة متوترة ، على شاشة صغيرة مماثلة ، تشير إلى أن الطاقة الهائلة المهلكة ، ستنطلق نحو (القاهرة) مباشرة ؛ لتسحقها سحقًا ، خلال أربع عشرة دقيقة فحسب ، وقال فى صرامة :

- فلنترك المواجهة وضع قوانينها .

تطلعت إليه لحظة بنفس الانبهار ، قبل أن ترتفع أصابعها ، استعدادًا لضغط أزرار كود فتح المخرج ، وهى تغمغم :

- هذا ماتوقعته .

لم تكن أصابعها قد لامست الأزرار بعد ، عندما صك مسامعها ذلك الهدير القوى ، القادم عبر الممر ، فاتسعت عيناها فى ارتياع مذعور ، وهى تلتفت إلى مصدره ، هاتفة :

ـ لقد .. لقد فعلتها .

هتف بها (أدهم) :

ـ فعلت ماذا ؟!

لم يكد يتم قوله .. أو حتى قبل أن يفعل ، تضاعف الهدير دفعة واحدة ، ثم ظهرت تلك المياه القوية ، التى تندفع عبر الممرات السرية ، فى سرعة مخيفة ..

وأطلقت (تيا) صرخة رعب هائلة ..

ثم اكتسحت المياه كل ما أمامها ..

ومن أمامها ..

بمنتهى العنف .

* * *

٧ ـ ذروة القـــوة ..

فجأة ، دوى ذلك الانفجار المكتوم ، عند الزنزانة الإليكترونية الواسعة ، التى تحتجز فيها الزعيمة رفاق (أدهم) ، وفريقه الصغير .

ومع الدخان الكثيف ، الذى تصاعد إثر الانفجار ، وصفارة الإنذار ، التى انطلقت فى المكان كله ، اندفع الجنود نحو الزنزانة ، وهم يشهرون مدافعهم الآلية ، و ...

وانقض فريق (أدهم) .

قنبلة أخرى ، صنعتها (ريهام) ، من المواد الكيماوية ، الناشئة عن إذابة ما علق بأوراقها الصغيرة ، فى مياه الشرب ، مع ما أضافه إليها (شريف) ، من دوائر إليكترونية مضغوطة دقيقة ، كانت تختفى تحت غلاف ساعته عادية المظهر ، وما صنعته أصابع (قدرى) الذهبية بهذا المزيج ..

تلك القنبلة الأخرى ، ألقتها (منى) وسط الجنود ، فانفجرت بدوى قوى ، يفوق تأثيرها الفعلى ، ولكنها صمت آذانهم ، وأفقدتهم توازنهم لحظة ..

وفى هذه اللحظة ، انقضت (منى) فى خفة وقوة ، ولكمت أحد الجنود فى أنفه ، ثم انتزعت مدفعه من يده ، وضربت به جندياً آخر فى فكه ، قبل أن تثب فى الهواء ، لتركل ثالثاً فى معدته ، وتسقطه بعيداً ..

ودون إضاعة لحظة واحدة ، التقط (شريف) و (ريهام) مدفعين آليين ، من الجنود الساقطين ، ورفعا فوهتيهما نحو الآخرين ، و ....

وأطلقا النار ..

وانتفض جسد (فرى) المكتنز ، فى توتر بالغ ، وهو يصم أذنيه بكفيه ، ويحاول أن يحتمى من تبادل النيران العنيف ، داخل ذلك الممر الطويل ..

أما (منى) و(شريف) و(ريهام) ، فقد تحولوا إلى آلات مقاتلة ، ورصاصاتهم تحصد رجال الزعيمة حصداً ، فى نفس الوقت الذى انطلقت فيه رصاصات الجنود نحوهم فى شراسة ..

وشعرت (منى) بخيط من النار ، يخترق عضلة عنقها ، وآخر يغوص فى فخذها ، فى نفس الوقت الذى ارتطمت فيه رصاصة بصدر (شريف) ، وانتزعته من مكانه ، لتلقيه أرضاً ، إلا أنه عاد يقف على قدميه ، ويواصل إطلاق النار فى قوة وحزم ..

أما (ريهام) ، فقد مزّقت رصاصة لحم ساقها ، وأخرى غاصت فى ذراعها ، وثالثة فجرّت الدماء الساخنة من جبهتها ، و ....

وفجأة ، دوى انفجار مكتوم ، ارتجّت معه الجزيرة كلها فى قوة ..

وارتجّت معه حجرة الزعيمة أيضاً ، فهتفت فى حدة ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

- ماذا يحدث هنا ؟

أجابها مسئول الدفاع فى توتر :

- إنه هجوم بالطوربيدات البحرية أيتها الزعيمة .. أكثر من عشرة طوربيدات ، تتجه نحو الجزيرة ، و ....

قبل أن يتم عبارته ، دوى انفجار آخر ، ارتجّت الجزيرة كلها ، فصاحت هى فى غضب :

- أين الوسائل الدفاعية ؟

أجابها الرجل فى عصبية :

- هناك نظام شوشرة قوى ، يفسد معظم نظم دفاعاتنا حول الجزيرة .

دوى الانفجار الثالث ، مع نهاية عبارته ، فاندفعت هى نحو لوحة أزرار كبيرة ، تحتلّ مكانًا خاصًا فى حجرتها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ والمدفع الفضائى ؟ لماذا لم يتم استخدامه ؟!

وراحت تضغط الأزرار فى سرعة ، وهى تهتف ، عبر مكبر صوت ، ينقل أوامرها إلى كل مكان فى قلعتها السرية ، المختفية فى قلب الجزيرة :

ـ حالة استنفار عام .. ستتخذ إجراءات الطوارئ القصوى فورًا .. كل الأسلحة تعمل فى آنٍ واحد .. أريد أن أسحق هذا الهجوم سحقًا ، وإثبات أننا قلعة منيعة ، لا أحد يمكنه اقتحامها قط .

مع ضغطات أزرارها ، أضيئت شاشة كبيرة أمامها ، وراحت كل الأقمار الصناعية ، التى تسيطر على شفرتها الكودية ، ترصد كل ما يحيط بجزيرتها ، حتى الغوّاصات الكامنة ، فى أعمق أعماق المحيط ..

كانت هناك ست غوّاصات تحيط بالمكان ، من مسافات بعيدة ، وأكثر من خمسين طوربيدًا ، من مختلف الأحجام ، تنطلق تحت سطح الماء ، نحو جزيرتها مباشرة ..

وبكل الغضب ، هتفت الزعيمة :

ـ لو أنكم تتصوّرون أن هذا يكفى لهزيمتى ، فقد أخطأتم أيها الأوغاد .

ضغطت أزرار التوجيه فى سرعة ، ونقلت تعليماتها إلى قاعة التحكُّم الرقمى الشاملة ، التى أطلقت أوامرها إلى القمر الصناعى الدفاعى ..

وانهمرت حزم الليزر من الفضاء ..

وراحت تنسف الغوّاصات ، واحدة بعد الأخرى ..

أما الطوربيدات ، فقد ارتفعت حواجز قوية من (التيتانيوم) ؛ للتصدّى لها ، حول ساحل الجزيرة ، و ...

ولكن تلك الطوربيدات ، الجديدة لم تنفجر ..

لقد توقّفت بغتة ، قبل أن تبلغ الحواجز ، وارتفعت إلى السطح ، ثم انفتحت ، ليخرج منها عشرات من جنود الكوماندوز ، المسلحين بأحدث وأقوى الأسلحة ..

وانطلقت دفاعات الزعيمة تحصد العديد والعديد من المهاجمين ..

ولكن أعدادهم كانت كبيرة بحق ..

بل وأكبر مما ينبغي ..

كان هجوماً شاملاً ، من كل الاتجاهات ..

هجوم رصدته قطع الأسطول الأمريكي من بعيد ، وفقاً للأوامر ، وراحت تنقل تفاصيله وتطوراته إلى القيادة في (واشنطن) لحظة بلحظة ..

« مازالت سيطرتها على ذلك المدفع الفضائي تمنحها التفوق .. »

نطقت مستشارة الأمن القومي العبارة في توتر ، قبل أن تشير إلى شاشة الرصد ، متابعة في عصبية :

ـ هل رأيتم كيف سحقت الغواصات الست ، في دقائق قليلة ؟!

خلع وزير الدفاع منظاره الطبي ، وراح ينظفه في اضطراب ، وهو يقول :

ـ الأمل الوحيد الآن في الهجوم البري .

غمغم الرئيس في عصبية :

ـ إنها تحصدهم حصداً .

وسرت في جسده انتفاضة لا إرادية ، وهو يتابع :

ـ من حسن الحظ أنهم ليسوا جنودنا .

قال وزير الدفاع ، وهو يعيد ارتداء منظاره :

ـ ربما لو كانوا كذلك ، وبأعداد مناسبة ، لـ .....

قبل أن يتمّ عبارته ، نقلت شاشة الرصد فجأة حزمة ليزرية هائلة ، هبطت من الفضاء ، لتغمر سطح الجزيرة كله لثانيتين ، ثم تتوقف دفعة واحدة ..

واتسعت عيون الثلاثة ، بمنتهى الرعب والهلع ..

فتلك الفترة القصيرة ، كانت كافية ؛ لتشوى أشعة الليزر أجساد المهاجمين شيّاً ، وتشعل فيها النيران ، لتنتشر مئات الجثث المحترقة ، على سطح الجزيرة ، في مشهد رهيب بشع ..

إلى أقصى حد ..

ولنصف دقيقة كاملة ، ران صمت رهيب مهيب ، على المكتب الرئاسي البيضاوي ، حسدت مستشارة الأمن القومي خلالها مدير المخابرات ؛ لأن عمله لم يسمح له بمطالعة المشهد معهم ..

ثم قطع الرئيس ذلك الصمت الرهيب ، وهو يغمغم بصوت مرتجف :

ـ كيف تقول : إنه لو كان هؤلاء جنودنا ، لحدث ماذا يا وزير الدفاع ؟!

حاول وزير الدفاع أن يزدرد لعابه ، إلا أن حالة الهلع فى أعماقه منعته من هذا ، فغمغم بصوت مختنق مبحوح :

ـ لكانت كارثة يا سيدى .

تراجع الرئيس فى مقعده ، وقال فى مرارة :

ـ هذا يعنى أنه لم يعد لدينا أمل ، فى الإفلات من ضربتها الانتقامية المنتظرة .

اندفعت مستشارة الأمن القومى تقول :

ـ بل ربما كان لدينا أمل واحد ..

استدار الاثنان إليها ، فتابعت فى سرعة وانفعال :

ـ رجل المخابرات المصرى .

ثم مطت شفتيها ، وأضافت فى مرارة :

ـ لو أنه مازال على قيد الحياة :

وكان هذا هو الشرط الوحيد بالفعل ..

أن يكون (أدهم) على قيد الحياة ..

فى تلك اللحظة ..

* * *

لم يكن هناك مهرب واحد من مياه المحيط ، التى تدفقت عبر الممرات السرية من الفئة (ب) ، فى قلب قلعة الزعيمة الخفية ..

لقد اندفعت فى قوة ، لتقتلع أمامها كل شىء ..

وكل شخص ..

ومع صرخة (تيا) ، انتزعتها المياه من مكانها ، ودفعتها أمامها فى قوة وعنف ..

ولكن أصابع (أدهم) أمسكت بها فى قوة ..

كان يحاول حمايتها ، وإنقاذها من ذلك المصير الرهيب ، والمياه المتدفقة تدفعهما أمامها ، وتضربهما بالجدران ، فى قوة وعنف ..

وبكل انفعالاتها ، هتفت (تيا) :

ـ لا فائدة .. إنها ستغرقنا عبر الممرات السرية كالفئران .

فنزع (أدهم) من حزامه واحدة من القنابل اليدوية، التي حصل عليها من الجنود، الذين حطم أنوفهم، في قسم الطوارئ الطبية، وهو يهتف في حزم صارم:

- علينا أن نحاول.

وانتزع فتيل القنبلة، وهو يلقيها نحو جدار الممر، مستطرداً:

- وليس بيدنا ضمان الفوز.

غاصت القنبلة تحت الماء لحظة، ثم دوى انفجار مكتوم، على نحو كاد يمزق أذني (تيا)، التي أطلقت صرخة رعب هائلة أخرى..

ثم انتبهت فجأة إلى أن اندفاع المياه القوى قد انخفض بغتة.

وأن قوة الدفع قد هدأت، إلى حد كبير..

وبكل دهشتها، هتفت:

- ماذا فعلت ؟!

أجابها (أدهم) في حزم، وهو يضرب الماء بذراعيه؛ ليخفف من اندفاعه:

- صنعت فجوة في جدار الممر، فاندفعت المياه عبرها، إلى الممرات الرئيسية، مما خفف من قوتها وضغطها.

هتفت مبهورة، وهي تتشبث بعنقه:

- ألم أقل لك: إنك مدهش.

أزاح ذراعيها عن عنقه، وهو ينتزع قنبلة أخرى، قائلاً في صرامة:

- إننا نخسر الكثير من الوقت.. أغلقي أذنيك جيداً.

هتفت، وهي تطيع أمره:

- ولكننا ابتعدنا كثيراً عن المدخل المطلوب.

صاح بها، وهو يلقي القنبلة الثانية، نحو جزء آخر من الجدار:

- حقيرتك تعلم الآن أين نحن، ولابد وأن تتخذ مخرجاً يخالف المألوف..

دوى الانفجار الثاني عبر الممر، لينسف جزءاً آخر منه، وقبل أن يتلاشى الدوي، كان (أدهم) يثب عبر ذلك الجزء، هاتفاً بـ (تيا):

- هيا.. أرشديني إلى الهدف..

صاحت (تيا) ، وهى تشير إلى لوحة أزرار فى الجدار ، وتجاهد لاستعادة توازنهـا ، وسط المياه ، التى لم يتوقف تدفقها بعد :

- انسف هذه اللوحة أولاً .. إنها ستمنع هبوط الألواح الفولاذية ، التى تعزل الممرات ، عن بعضها ..

قبل حتى أن تكمل الشرح ، كان هو يستدير إلى اللوحة ، ويسحقها سحقًا برصاصات مدفعه ، فارتفع صوت الزعيمة ، عبر أجهزة الرصد والاتصال ، التى عادت إلى العمل ، وهى تقول فى غضب :

- ستدفعين ثمن خيانتك غاليًا يا (تيا) ..

لم تستطع (تيا) منع تلك الارتجافة ، التى سرت فى جسدها كله ، مع سماع صوت الزعيمة الغاضب ، وإن تابعت فى توتر :

- الممر الذى أمامك سيقود إلى مسار مواز لقاعة التحكم الرقمى الشامل ، وهو صغير بحيث لا يمكنهم مواجهتك عبره إلا فرادى ، وبعد ثلاثمائة متر تقريبًا ، ستصل إلى موقع الماسة الكبيرة ..

صاحت الزعيمة مرة أخرى ، عبر أجهزة الاتصال :

- لن تصل إليه حيًا يا (أدهم) .

هتف بها (أدهم) فى سخرية :

- اذهبى إلى الجحيم .

صاحت به (تيا) فى توتر :

- تسع دقائق فقط تبقت .. أسرع بالله عليك ..

ولم يضع (أدهم) لحظة واحدة ..

لقد انطلق يعدو ..

ويعدو ..

ويعدو ..

من أجل (مصر) ..

وعبر شاشات الرصد ، التى عادت كلها للعمل ، تابعت الزعيمة بكل الغضب عدو (أدهم) ، فى المسار الوحيد ، الذى يمكن أن يقوده إلى مقر أخطر سلاح فى القرن الجديد ، بأقل خسائر ممكنة ..

خيانة (تيا) ، هى التى منحته الفرصة لهذا ..

الخيانة ، التى أحسنت هى استغلالها لصالحها ، منذ بدأت فى تنفيذ خطتها القوية الجريئة ، ستكون السبب الرئيسى أيضًا ، فى إفساد كل شىء ولكن لا ...

إنها لم تخسر المعركة بعد ..

كل ما يحتاجه الأمر ، هو إعادة تدوير الأمور ، وتوزيع القوات ..

واستغلال كل ورقة رابحة ..

على الإطلاق ..

وتألقت عيناها ، بكل وحشية الدنيا ، وهى تتنقل بين شاشات الرصد المختلفة ، قائلة :

- فليكن يا (أدهم) .. إنك لم تترك لى خيارًا آخر .

وكان ما تنوى فعله رهيبًا ..

رهيب بحق ..

وبكل المقاييس ..

* * *

مع القتال العنيف ، وتبادل النيران المستميت ، تراجع جنود الزعيمة على نحو مدروس ، وما أن تجاوزوا حدًا بعينه ، حتى هبطت ألواح فولاذية ، تعزل المنطقة كلها تمامًا ، وتسجن رفاق (أدهم) داخل الممر الطويل ، الذى قاتلوا فيه باستماتة ..

وفى مرارة وألم ، زفرت (ريهام) ، وتركت جسدها ينزلق ، لترقد ملتصقة بالجدار ، والدماء تسيل من جروحها ، وهى تغمغم :

- على الأقل ، تدرك الآن أننا لم نستسلم فى سهولة .

غمغم (شريف) فى ألم ، والدماء تتناثر من بين شفتيه :

- لقد فعلنا كل ما بوسعنا .

سعلت (منى) ، وشعرت بالدنيا تدور حولها ، وهى تقول :

- المعركة لم تنته بعد .

نقل (قدرى) بصره بينهم ، فى ألم ومرارة ، وأدهشه أنه لم يصب برصاصة واحدة ، على الرغم من كل ما أصابهم ، فغمغم فى حسرة :

- وما المفترض حدوثه ، فى المرحلة التالية ؟!

لوّحت (منى) بكفها ، قائلة :

ـ لا أحد يدرى .. ما زالت المبادرة فى أيديهم .

مع آخر عبارتها ، أضيئت شاشة تلفزيونية ، بالقرب من سقف الممر ، وظهر عليها وجه الزعيمة ، وهى تقول فى صرامة :

ـ كان ينبغى أن نتعارف ، وأن أبدى إعجابى بقتالكم أولاً ، ولكن الواقع أنه ليس لدينا ما يكفى من الوقت لهذا .

تساءل (قدرى) فى توتر :

ـ من هذه المرأة ؟!

أجابته (منى) ، وهى تتفرس فى ملامح الزعيمة جيدًا :

ـ إنها تلك التى أتينا لنقاتلها .

تساءل مرة أخرى :

ـ ولكن من هى ؟!

لم يكن وجه الزعيمة مألوفًا لأى منهم ، فغمغمت (منى) :

ـ لم أرها من قبل قط .

ابتسمت الزعيمة فى سخرية ، وهى تقول :

ـ هذا ما تتصورينه يا عزيزتى (منى) ، ولكن الواقع أن كلتينا تعرف الأخرى جيدًا .. جيدًا جداً .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تحاول فهم ما تعنيه الزعيمة ، التى اكتسب صوتها وحشية مفاجئة ، وهى تقول :

ـ كنت أتمنى أن أؤجل حديثنا الممتع هذا إلى مرة أخرى ، ولكن لو واصل قائدكم تجاوزاته ، فلن تكون هناك مرة أخرى .

انتفض جسد (منى) فى عنف ، واتسعت عينا (قدرى) عن آخرهما ، فى حين هتف (شريف) و(ريهام) ، فى آن واحد :

ـ الأستاذ ؟!

مع هتافهما ، تلاشت صورة الزعيمة من الشاشة ، وظهرت بدلاً منها صورة (أدهم) ، وهو يبلغ باب موقع العاصمة الكبيرة ، ويصوب فوهة مدفعه إلى رتاجه ، فهتفت (منى) :

ـ رباه ! لقد فعلها .. كنت واثقة من أنه سيفعلها .

مع هتافها ، أطلق (أدهم) رصاصات مدفعه على رتاج الباب ، ثم اقتحمه فى قوة وخفة ، لتنهال عليه رصاصات جنود الزعيمة ، الذين حشدتهم للدفاع عن سلاحها الرهيب ..

كان التفوق العددى ضخمًا ، ولكن (أدهم) لم يكن يقاتل من أجل رفاقه ..

أو حتى من أجل حياته ..

لقد كان يقاتل من أجل (مصر) ..

وهذا وحده، كان يكفى؛ ليثبت فى عروقه قوة هائلة ..

قوة بلا حدود ..

ففى نفس اللحظة، التى اقتحم فيها موقع ذلك السلاح الرهيب، الذى يطلقون عليه اسم (الماسة الكبيرة)، وبخبرة سنوات طول، من النزال والقتال، وثب جانبًا، بمنتهى الخفة والمرونة، متفاديًا رصاصات جنود الزعيمة، التى انطلقت نحوه فى غزارة، أملاً بالفوز بالمكافأة المالية الضخمة، التى سيحظى بها من يظفر به، وشعر هو برصاصة تخترق ذراعه اليسرى بالفعل، وهو يتدحرج فى رشاقة وسرعة، ليحتمى بمنضدة معدنية ثقيلة، تلقت عنه فيض الرصاصات، المنهمر بلا حدود ..

وعلى بعد أمتار قليلة منه، رأى (أدهم) ذلك السلاح، ورأسه المطعم بآلاف من قطع الماس النقية يتلألأ تحت الأضواء، ومن حوله أسطوانة سميكة، من زجاج سميك ثقيل، مضاد للرصاصات.

وحتى الانفجارات ..

لم يكن هناك من سبيل إذن، لإيقاف الطلقة الساحقة الأولى، سوى إيقاف برنامج الإطلاق نفسه ..

وهذا يعنى الوصول إلى ذلك الكمبيوتر الكبير فى الركن، والذى تخلى عنه مشغلوه، وبكروا بالفرار بحياتهم، مع بدء المواجهة المسلحة، وشاشته تشير إلى تبقى سبع دقائق فحسب، قبل الإطلاق ..

وبحسبة بسيطة، لم يجد (أدهم) أمامه سوى أن يقاتل.

وبكل قوته ..

وفى حجرتها، بلغ انفعال الزعيمة ذروته، وهى تشاهد وتتابع رصاصاته، التى لاتخطئ أهدافها أبدًا، وكل منها تنطلق فى الاتجاه المحدود لها بالضبط، لتحصد أحد رجالها، الذين ما إن يسقط أحدهم، حتى يظهر خلفه ثلاثة آخرون ..

وعلى الرغم من انعدام التوازن العددى تمامًا، شعرت هى بمنتهى القلق، لمجرد وجود (أدهم)، فى موقع الإطلاق، الذى وضعت فيه كل أملها، لاستعادة السيطرة الكاملة على الموقف كله ..

لذا، فقد راحت تضغط أزرار أجهزة الاتصال، وهى تقول فى غضب صارم:

ـ فليكن يا (أدهم).

مع ضغطاتها ، ظهرت صـورة رفـاق (أدهم) ، على تلك الشاشة الكبيرة ، فى موقع السلاح الرهيب ، وارتفع معها صوتها فى غلظة حادة :

- استسلم يا (أدهم) .. استسلم وإلا قضيت على أقرب الناس إليك ، أمام عينيك مباشرة .

وعلى الرغم منـه ، خفق قلبه بمنتهى العنف ، وهو يطالع مشهد رفاقه المصابين ، علـى الشاشـة الكبـيرة ، وانعقد حاجباه فى توتر بالغ ، مع مرأى (منى) بالذات ، فهتف بكل الغضب والصرامة :

- لو مسست شعرة واحدة منهم أيتها الحقيرة ، سأجعلك تتمنين الموت ألف مرة .

صاحت فى غضب :

- أى تبجح هذا يارجل المخابرات المصرى ؟! إنك بين أصابعى مثلهم ، ولو قررت القضاء عليهم الآن ، فلن يمكنك أن تنقذ تلك الشعرة الواحدة منهم ، التى تهددنى وتحذرنى من لمسها .

ألقى (أدهم) نظرة متوترة على شاشة الكمبيوتر ، التى يقترب العد التنازلى عليها من الدقائق الخمس ، وهو يقول فى صرامة ، لم تنجح تمامًا فى إخفاء ذلك الألم البشع ، الذى يعتصر كيانه كله :

- هل تتصورين أن أغلى شىء فى الوجود ، يمكن مقايضته بمصير (مصر) كلها ؟!

قالت فى صرامة :

- الاختيار مشكلتك أنت وليس أنا .. أنا واضحة وحاسمة تمامًا فيما عرضته .. استسلامك أو موتهم جميعًا الآن .. وأمام عينيك مباشرة .

كانت كلماتها تتردد فى الجانبين ، اللذين يرى كل منهما الآخر ، عبر شاشات الاتصال الكبيرة ، فهتفت (منى) بكل قوتها :

- لاتطعها يا (أدهم) ... لاتستسلم أبدًا .. كل شىء يهون من أجل (مصر) .. كل شىء فى الوجـود .. حتى نحن يا (أدهم) .. لاشىء يستحق أن نضحى بالوطن من أجله .

لم يكن باستطاعته سماعها من جانبه ؛ لأن نظم الاتصال ، التى أعدتها الزعيمة من ناحيتها ، لم تكن تتيح هذا ، إلا أنه استطاع أن يقرأ حركات شفتيها ..

وأن يفهم ..

ويستوعب ..

وبكل مرارة وعذاب الدنيا ، اعتصر الألم قلبه اعتصاراً ..

اعتصره ، على نحو لم يشعر به ، فى حياته كلها قط ..

فيا له من موقف !

بل يا له من عذاب !

رهيب هو هذا الموقف ، الذى يجد نفسه فيه ، فى أكثر مراحل الصراع دقة وحسماً ..

موقف ليس أمامه سوى خيارين ، كلاهما مر ..

إما أن يضحى بوطنه ..

أو بكل من يحب ..

موقف يتحتم فيه الاختيار ، بين عشق ..

وعشق ..

« لن أمنحك الزمن كله للاختيار يا (أدهم) .. »

نطقتها الزعيمة بكل غضب وصرامة الدنيا ، وتردد صوتها فى المكان قوياً حاسماً ، مع توقف رجالها عن إطلاق النار فى حذر ، انتظاراً لما سيسفر عنه الموقف ..

ومع قولها ، تحفزت سباباتهم مرة أخرى ، على أزندة مدافعهم الآلية ، فى نفس الوقت الذى تابعت فيه عينا (أدهم) شاشة الكمبيوتر ، التى يشير العد التنازلى عليها ، إلى ضياع الوقت بسرعة مخيفة ..

ومن موقعهم ، هتف (قدرى) ، وهو يلوح بقبضته فى حماس وحزم :

- استمع إلى (منى) يا (أدهم) .. استمع إليها ياصديقى .. إنها تتحدث باسمنا جميعًا .. تتحدث عن (مصر) .. (مصر) التى عشقناها جميعاً ، والتى لاتساوى حياتنا ذرة إلى جوار سلامتها وأمنها .

وهتفت (ريهام) فى حزم أكثر :

- لاتستسلم أيها الأستاذ .. يكفينا فخراً أن نموت من أجلها .. من أجل (مصر) .

وفى تهالك شديد ، تراخت عينا (شريف) ، وراحت الدماء تسيل من بين شفتيه ، وتتناثر مع كلماته ، وهو يقول :

- إننا سنموت فى كل الأحوال أيها الأستاذ .. امنحنا هذا الشرف إذن .

« اختيارك يا (أدهم) .. »

صرخت الزعيمة بالعبارة ، بكل غضب وصرامة وشراسة الدنيا ، فانتفض جسد (أدهم) فى عنف ، وهو يصيح بها :

ـ (مصر) أيتها الحقيرة .. (مصر) أولاً ، وقبل كل شيء ..

بدا صوتها ثائراً منفعلاً ، إلى أقصى حد ممكن ، وهى تصرخ :

ـ فليكن أيها المتبجح .. أنت اخترت .

ومع صرختها ، ضغطت أحد الأزرار أمامها فى قوة ..

وانتفض جسد (أدهم) مرة أخرى ..

انتفض جسده مع قلبه ..

وبمنتهى منتهى العنف ..

فمع ضغط الزعيمة ، نقلت الشاشة الكبيرة أمامه مشهد انفجار ..

انفجار هائل رهيب ، أطاح بالمنطقة التى يقف فيها الجميع ..

(شريف) ..

و(ريهام) ..

و(قدرى) ..

و(منى) ..

وثانية تقريباً ، وعلى الرغم من خبراته الطويلة ، وقدرته المدهشة ، فى السيطرة على انفعالاته ومشاعره ، عجز عقل (أدهم) عن استيعاب ما حدث أمامه ..

عجز عن استيعاب أنه قد شهد بعينيه مصرع الجميع ..

شهد مقتل (قدرى) ..

وموت (منى) ..

ومع ذكر (منى) ، فى أعمق أعماقه ، تفجرت فى كيانه كله طاقة هائلة جبارة ، تصاعدت فى عروقه وخلاياه ، فى سرعة رهيبة ، قبل أن تنطلق كلها من حلقه ، فى شكل صرخة واحدة ..

صرخة هائلة ، بدت وكأنها طاقة محركة خارقة ، هبّ معها جسده من مكانه ، ووثب وثبة تتجاوز كل حدود البشر ، فى مشهد رهيب ، انخلع له قلب الزعيمة فى عنف ، مما جعلها تثب بدورها من مقعدها ، وتتراجع حتى التصقت بالجدار بكل رعب الدنيا ، وعقلها يصرخ ، فى كل ذرة من كيانها :

ـ يا إلهى ماذا فعلت ؟! ماذا فعلت ؟!

فما نقلته لها شاشات الرصد ، كان يؤكد أنها قد ارتكبت أكبر حماقة فى عمرها كله ..

لقد حوّل الغضب (أدهم) إلى وحش كاسر ..

وحش لم يعد يبالى بكل الرصاصات ، التى انطلقت نحوه ..

أو حتى بتلك التى اخترقت جسده ، فى مواضع لم يعد باستطاعته إحصاءها ..

لقد تفجّر بركان الغضب فى عروقه ..

فى كل خلية من خلاياه..

وبكل ما صنعه فيض الأدرينالين فى جسده ، راحت قبضته تهوى على خصومه ، فى عنف لم يعرفه هو نفسه من قبل ..

لقد بدت قبضتاه كألف ألف قنبلة ، وهما تنفجران فى أى مكان تبلغه من أجسادهم ، دون تحديد أو تمييز ..

كل الغضب فى كيانه حطّم أعداءه ..

ومزّقهم ..

وأطاح بهم فى كل اتجاه ..

ودون شفقة أو رحمة ..

ولأول مرة فى حياته ، لم يعد يبالى بحياة أحد ..

ولا بأين تتجه ضرباته ..

لقد تحطّم عنقًا ..

أو تكسر ضلوع صدر ..

أو حتى تنتزع قلبًا ..

لم يعد هناك فارق ..

فالغضب الذى يملأ وجوده ، كان يتجاوز الحدود ..

كل الحدود ..

ومع تلك المشهد الرهيب ، تيقنت الزعيمة ، فى رعب هائل ، من فداحة ما أقدمت عليه ، فى ثورة غضب طائشة ..

لقد سلبته كل من يحب تقريبًا ..

وفى ضربة واحدة ..

ضربة فجرّت كل غضبه ..

وثورته ..

وقوته أيضًا ..

وعلى شاشاتها ، شاهدته يحصد من تبقى من رجالها برصاصات مدفعه الآلى ، ثم يغلق كل مداخل الموقع فى إحكام ، ويستدير لمواجهتها ..

كان جسده كله مثخنًا بالجراح، على نحو أدهشها، وجعلها تتساءل: كيف يمكنه أن يقف على قدميه، مع كل هذا؟!

أما هو، فقد ألقى نظرة واحدة على شاشة الاتصال، ثم نقل بصره إلى شاشة الكمبيوتر، التى أشارت إلى ما يقل عن الدقيقتين، قبل أن يطلق ذلك السلاح الرهيب طلقته الأولى..

الطلقة الساحقة، التى ستطيح بعاصمة وطنه تمامًا..

وبلا رحمة..

ومع ذعرها وتوترها، هتفت الزعيمة، فى محاولة أخيرة:

- لن يمكنك منع الإطلاق الآن يا (أدهم).. فات أوان هذا.

لم يبال بكلماتها، وهو يلقى سلاحه جانبًا، ويجلس أمام كمبيوتر الإطلاق، الذى ألقى عليه نظرة سريعة، قبل أن ينتزع منه بعض الأسلاك فى عنف..

وارتجف قلبها بين ضلوعها بشدة..

فالأسلاك التى انتزعها، كانت تقطع صلتها هى بأجهزة التوجيه..

وهذا يعنى أنه قد صار منفردًا بالكمبيوتر..

وبكل عصبيتها، وعلى الرغم من إدراكها عدم جدوى هذا، ضغطت أزرار استدعاء كل من تبقى من قواتها، وهى تهتف عبر أجهزة الاتصال:

- راجع البرنامج كله، ولن تجد وسيلة واحدة لمنع عملية الإطلاق أو إيقافها الآن.

راحت أصابعه تجرى على لوحة الأزرار، فى سباق مع الزمن، وعيناه تتابعان أرقام العد التنازلى فى توتر..

لقد كانت الزعيمة صادقة تمامًا..

البرنامج معد، بحيث يبلغ مرحلة لا عودة، لا يمكن بعدها التدخل لمنعه..

وبأية وسيلة كانت..

ومن الناحية المنطقية، كان هذا يعنى أن الانتصار فى المعركة أصبح مستحيلاً..

ولكن لا..

فى حياته كلها، لم يؤمن أبدًا بكلمة مستحيل!

هناك حتمًا ثغرة ما..

نقطة ضعف ما..

وفى سرعة لم يعهدها فى نفسه من قبل ، وعلى الرغم من الدماء ، التى تنزف من جسـده فى غزارة ، حتى يكاد يفقد الوعى ، راحت أصابعه تعمل ..

وتعمل ..

وتعمل ..

والوقت يمضى ..

ويمضى ..

ويمضى ..

ثم فجأة ، التقطت عيناه برنامجاً صغيراً ، فى ملف البرامج الاحتياطية ..

برنامج لم يكن بحاجة للكثير من البراعة والذكاء ، ليدرك ما هيته ..

إنه برنامج تدمير خاص ..

برنامج تدمير ذاتى للقلعة كلها ..

برنامج يمكنه نسفها عن آخرها ، بضغطة زر واحدة ..

وعلى شاشتها ، أدركت الزعيمة أنه قد توصل إلى برنامج التدمير الذاتى ، فهتفت فى ارتياع :

ـ لا .. لا تفعلها يا (أدهم) .

راقبت عيناه شاشة العد التنازلى ، التى تشير إلى دقيقة واحدة ، قبل الطلقة الساحقة الأولى ، ثم راحت أصابعه تعمل على أزرار الكمبيوتر ؛ لتفعيل برنامج التدمير الذاتى ، وهو يقول ، بكل غضب الدنيا :

ـ لم تتركى لى ما أخسره أيتها الحقيرة .

هتفت فى سرعة :

ـ خطأ يا (أدهم) .. خطأ .. ما زال لديك ما تخسره .

تجاهلها تماماً ، وأصابعه تواصل عملها فى سرعة ، فى محاولة للفوز بسباق السرعة ، حتى يتم التدمير الذاتى ، قبل أن تنطلق الشحنة الساحقة ، فهتفت هى فى حدة :

ـ ابنك يا (أدهم) .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ ابنى .

أجابته فى سرعة ، وهى تحصى الثوانى المتبقية ، قبل موعد إطلاق الشحنة :

ـ نعم يا (أدهم) .. ابنك (آدم) .. ابنك هنا يا (أدهم) .. فى قلعتى السرية .

انعقد حاجباه فى شدة أكثر ، وهو يضع اللمسة الأخيرة لبرنامج التدمير الذاتى ، بحيث لم يعد ينقصه إلا ضغطة زر واحدة ، ورفع سبابته ليضغطها بالفعل ، فصاحت هى :

ـ ها هو ذا .. ها هو ذا ابنك يا (أدهم) ..

ظهرت صورة الصغير على الشاشة الكبيرة بالفعل ، وهو يلهو ببعض لعبه ، فى حجرة أنيقة ، وتابعت هى فى توتر :

ـ إنك لن تضحى به .. أليس كذلك ؟!

مرة أخرى ، تصاعدت كل مرارة الدنيا فى أعماقه ، وعض شفتيه فى قهر ، وعيناه ترصدان شاشة العد التنازلى ..

ثلاثون ثانية على الإطلاق ..

تسع وعشرون ..

ثمان وعشرون ..

سبع وعشرون ..

وفى أعمق أعماق قلبه ، الذى مزقه الحزن تمزيقاً ، لم يعان مثله ، فى عمره كله ، استعاد مشهد ذلك الانفجار الرهيب ..

الانفجار الذى قضى على الجميع ..

(شريف) ..

و(ريهام) ..

وصديق العمر (قدرى) ..

و(منى) ..

(منى) التى يبكى قلبه بدموع من الدم لفقدها ..

(منى) التى لم يحب أو يعشق ، فى عمره كله سواها ..

(منى) .. (منى) .. (منى) ..

وبكل العذاب والمرارة ، أدار عينيه إلى صورة ابنه ، على الشاشة الكبيرة ..

ابنه ، الذى أنجبه من عدوته اللدود (سونيا جراهام)(*) ، والذى بحث عنه طويلاً وكثيراً ..

كثيراً جداً ..

ابنه الوحيد ..

والعزيز ..

وفى الخارج ، تعالى وقع أقدام رجال الزعيمة ، وهم يقتربون من المكان ، فى نفس اللحظة ، التى صرخت فيها هى :

ـ إنه ابنك يا (أدهم) .. ابنك الوحيد .. ابنك الذى لايمكنك أن تضحى به أبداً .. مهما كان الثمن .

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم (٨٤).

قاوم دمعة كبيرة ، تكوّنت وانهمرت فى أعمق أعماق قلبه ، وراحت تقاتل وتجاهد ؛ لتهزم إرادة عينيه ، وانطلق ذهنه يردد كلمات (منى) الأخيرة ..

« كل شىء يهون من أجل (مصر) .. كل شىء .. »

تسع ثوان تبقت ..

ثمان ..

سبع ..

ومن خلفه ، سمع (أدهم) صوت جدار ينزلق ..

ولم يعد هناك مجال للانتظار ..

لذا فقد حسم أمره ..

وضغط الزر الأخير ..

وانتفض جسد الزعيمة ، وهى تطلق صرخة يائسة بائسة ، و ....

ودوى الانفجار .

* * *

٨ ـ الأســـطورة ..

« أخيرًا ، انتهى الأمر أيها السادة .. »

نطق الرئيس الأمريكى العبارة فى ارتياح ، وهو يتراجع فى مقعده الوثير ، داخل مكتبه البيضاوى الكبير ، قبل أن يشير بيده ، متابعًا :

ـ والمهم أن الناخب الأمريكى العادى لم يشعر بما حدث ، فالانتخابات على الأبواب ، وكان من الممكن أن يكلفنا هذا الكثير .

أشار وزير الدفاع بيده ، قائلاً :

ـ لقد اتخذنا كل مايكفى ؛ لضمان تكتم الأمر تمامًا ، وسنصدر بيانًا رسميًا ، ننسب فيه كل الخسائر إلى تنظيم القاعدة ، أو اليمين المتطرف ، أو بعض الجهات الإرهابية المختلفة ..

سألته مستشارة الأمن القومى ، فى توتر عجيب ، بدا وكأنه جزء من شخصيتها :

ـ وماذا عن الأقمار الصناعية ، ومشروع حرب النجوم ؟!

أجابها مدير المخابرات :

ـ بنسف قلعتها السرية ، فى قلب تلك الجزيرة ، استعدنا السيطرة على الأمور .. على الأقمار الصناعية ، ومدفع الليزر الفضائى ، وكل الأمور الأخرى ، ورجالى يقومون الآن بعملية

فرز واسعة ، لتحديد كل من كـان لـه صلـة بتلك الزعيمـة ، من رجال الأمن والعسكريين ، وسيتم عزلهم جميعًا ، وتوجيه الاتهامات بالخيانة إليهم .

مطت المستشارة شفتيها ، قائلة :

ـ المهم ضمان ألا يتكرر هذا أبدًا .

قال وزير الدفاع فى حزم :

ـ لقد اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة لهذا .

أومأت برأسها متفهمة ، ثم سألت فى اهتمام :

ـ ومتى يمكننا نسف تلك القلعة السرية فى المحيط ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ ليس فى القريب العاجل بالتأكيد ، فبرنامج التفجير الذاتى ، الذى استخدم لتفجيرها ، كان معدًا لنسف كل القاعات والممرات الأساسية ، وتدميرها عن آخرها ، ولكن بعض الفحوص تشير إلى وجود شبكة من الممرات ، التى لم يبلغها الانفجار ، تمتد من عمق الجزيرة ، إلى ما تحت مياه المحيط ، وهذه لم يتم فحصها بعد ، لإعلان أن المكان قد أصبح آمنًا ، وصالحًا لزيارة المسئولين .

سأله الرئيس بمنتهى الاهتمام :

ـ وهل عثرتم على تلك الزعيمة ؟!

هزّ مدير المخابرات رأسه ، قائلاً :

ـ هناك مئات الأشلاء المتناثرة ، فى كل مكان فى تلك القلعة ، ولدينا فريق هائل من الرجال ، يقوم بإجراء فحص جينى ، لكل ما وجدناه ، فى محاولة لتحديد هوية القتلى هناك ، ولقد أجريت اتصالا بالمخابرات الروسية ، والمخابرات المصرية ، لمساعدتنا فى كشف البصمة الجينية للروسية (إيفانجلينا إيفانوفيتش) ، ولرجل المخابرات المصرى ورفاقه ، ومع كل ما نلقاه من تعاون ، من كل الجهات ، يمكن أن ينتهى هذا خلال أسبوع واحد فحسب .

غمغم الرئيس :

ـ عظيم .. عظيم ..

مع آخر حروف كلماته ، صدر أزيز خاص ، من جهاز الاتصال فى الركن ، فانعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ ماذا يريد منا هذا الرجل الآن ؟!

اتجه وزير الدفاع إلى جهاز الاتصال ، وضغط زره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لم نعد ملزمين بالتعاون معه الآن .

ظهرت صورة مستر (X) على الشاشة ، بوجهه الغارق فى الظلمة كالمعتاد ، وهو يقول فى هدوء :

ـ اسمحوا لى بتهنئتكم على حسم الموقف أيها السادة .

غمغم الرئيس ، وهو يشيح بوجهه فى ضيق :

ـ أشكرك .

واصل مستر (X) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ وبهذه المناسبة ، أرجو أن تتذكروا جيدًا كم بذلت من أجلكم ، وكم خسرت ، فى تلك المواجهة الأخيرة ، و ....

قاطعته مستشارة الأمن القومى فى غلظة :

ـ هل ستطالبنا بمقابل تعاونك معنا ؟!

أجابها مستر (X) فى هدوء :

ـ لن أطلب الكثير ياسيدتى .. فقط ألا تتدخل قطع أسطولكم ، فى أثناء قيام منظمتى بعمليات البحث ، لانتشال ذلك الذهب ، الذى غرق مع مدمرتكم .

هتف به الوزير مستنكرًا :

ـ هل تمزح يا رجل ؟! ذلك الذهب يساوى ستين مليار دولار على الأقل ، ولدينا خطة لانتشاله ، وإعادته إلى (فورت نوكس) ؛ لتعويض العجز الرهيب فى اقتصادنا .

أجابه مستر (X) ، فى هدوء مستفز :

ـ ذلك العجز صنعته غطرستكم ، التى دفعتكم إلى إنفاق مئات الملايين ، فى حروب ليس لها مايبررها .. سوى أكاذيبكم بالطبع ..

احتقن وجه مستشارة الأمن القومى فى غضب ، وهى تهتف :

ـ كيف تجرؤ ، أيها الـ .....

قبل أن تتم عبارتها ، انبعث فجأة صوتها ، عبر جهاز الاتصال ، مع أصوات الرئيس ، ووزير الدفاع ، ومدير المخابرات ، وهم يناقشون خطة الاستيلاء على ذهب (فورت نوكس) ، فامتقعت وجوه الجميع بشدة ، وارتفع صوت مستر (X) ، وهو يقول بشىء من السخرية :

ـ جهاز الاتصال أتاح لى تسجيل هذا بالصوت والصورة ، وأحتفظ بالنسخة الأصلية فى مكان آمن ويمكننى إهداؤها إلى الصحافة ووسائل الإعلام ، فى أية لحظة أشاء .

بدا وكأن الرئيس الأمريكى قد انهار على مقعده ، فى حين تراجعت مستشارة الأمن القومى فى هلع ، وامتقع وجه الوزير فى شدة ، فقال مدير المخابرات فى توتر :

ـ فليكن يا مستر (X) .. انتشل ذهب (فورت نوكس) ، كما يحلو لك .. ألك أية مطالب أخرى ؟!

بدا صوته صارمًا آمرًا ، وهو يقول :

ـ أن يستمر ذلك التعاون ، وفقًا للعقد المبرم بيننا .

غمغم الرئيس فى مرارة :

ـ المهم أن نستمر فى الحكم ، لفترة رياسة ثانية .

قال مستر (X) فى برود :

ـ سيكون هذا ممتعاً .

ثم استطرد بنفس الصرامة :

ـ أما لو أتت الانتخابات بإدارة أخرى ، فستصبح ملزمة بكل العقـود والعهـود والمواثيق ، التى التزمت بها الإدارة السابقة ، بعد أن أطلعها عليها بالطبع .

امتقعت وجوههم أكثر وأكثر ، فى حين لوّح هو بيده ، وهو يضيف ، قبل أن تخفت صورته على الشاشة :

ـ إلى اللقاء أيها السادة .. لاتتخلصوا من جهاز الاتصال هذا ؛ حتى يستمر التعاون المثمر بيننا .. وبالمناسبة ، لاتنسوا إبلاغى بكل ماتتوصلون إليه ، فى تلك القاعة السرية هناك .. فى المحيط .

قالها ، وأطلق ضحكة ظافرة متشفية ، وصورته تتلاشى ، وتتلاشى ، حتى اختفت تماماً ، تاركة عصابة الإدارة الأمريكية خلفها ، وقد خيّم عليهم صمت مهيب ثقيل :

صمت له رائحة مؤسفة ..

رائحة الخزى والعار ..

كل الخزى ..

وكل العار ..

* * *

حزن شامل ، ذلك الذى سيطر على أروقة مبنى المخابرات العامة المصرية ، فى ذلك اليوم ، الذى شاركتهم فيه الشمس ، فتوارت خلف غيوم كثيفة ، أضفت الكثير من الكآبة على المكان ، الذى فقد خمسة من أفضل أفراده ، وعلى رأسهم (أدهم صبرى) نفسه ..

وعلى الرغم من أن هذا ليس بالإجراء المألوف ، فقد فاجأ السيد الرئيس المبنى بزيارته ، فأسرع مدير المخابرات لاستقباله ، محاولاً إخفاء دهشته ، خلف ترحيبه الحار ، وهو يقول :

ـ مرحباً يا سيادة الرئيس .. مرحباً بك فى مقر مخابراتك .. كنا نتمنى أن تعلمنا بالزيارة ، حتى نتخذ كل الإجراءات اللازمة لاستقبالك .

ربّت الرئيس على كتفه ، قائلاً :

ـ لا عليك .. تراودنى أحياناً فكرة القدوم لزيارتكم ، دون أية تعقيدات رسمية .

اصطحبه مدير المخابرات إلى قاعة كبار الزوار ، وهو يقول :

ـ على الرحب والسعة دوماً يا سيادة الرئيس ..

اتخذا مجلسهما فى القاعة ، وقال الرئيس ، فى حزن لم يفارق نبراته بعد :

ـ هل اتخذتم كل الإجراءات اللازمة ، من أجل جنازة العميد (أدهم) ورفاقه ؟!

أومأ المدير برأسه ، مجيباً :

ـ إننا ننتظر فقط وصول الأشلاء من الولايات المتحدة الأمريكية .

سأله الرئيس في اهتمام :

ـ ألم يعثروا عليها بعد ؟! لقد مضى ما يقرب من الأسبوع !

هزّ المدير رأسه نفياً ، وأجاب :

ـ ما عثروا عليه أكّد وجود جثة (لورا كيلرمان) ، وكذلك جثة (إيفانجلينا إيفانوفيتش) ، التي عثروا إلى جوارها على بقايا علبة سجائر حمراء طويلة ، وقداحة ماسية ، فأثبتت الأفلام المسجلة ، للاتصالات السابقة أنهما يخصان تلك الزعيمة الغامضة ، ثم إن صورتها ، الموجودة في ملفات المخابرات الروسية ، تتفق مع صورة الزعيمة أيضاً .

سأله الرئيس في اهتمام :

ـ وماذا عن (أدهم) والآخرين ؟!

هزّ المدير رأسه نفياً مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لم تتوافق بصمته الجينية ، مع أية أشلاء تم فحصها ، حتى هذه اللحظة .. وهذا ينطبق على الباقين أيضاً .. (منى) ، و(قدرى) ، و(شريف) ، و(ريهام) .

وتنهّد في عمق ، قبل أن يضيف :

ـ وما زالوا يواصلون البحث .

التقى حاجبا الرئيس ، وهو يقول في اهتمام شديد :

ـ إذن ، فلم يعثروا على ما يثبت مصرعه بعد .

قالها الرئيس ، ونهض من مقعده ، واتجه نحو النافذة الكبيرة ، يتطلع عبرها إلى ساحة المبنى ، فتبعه المدير ، قائلاً :

ـ الانفجار هناك كان عنيفاً للغاية ، يا سيادة الرئيس .

ردّد الرئيس في حزم ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ ولم يعثروا على ما يثبت مصرعه بعد .

بدا القلق في صوت مدير المخابرات ، وهو يقول في حذر :

ـ سيادة الرئيس .. لا ينبغي أن ...

التفت إليه الرئيس ، قبل أن يتم عبارته ، وقال في حزم :

ـ ولن تقام الجنازة الرسمية ، إلا بعد إثبات مصرعه .

الحماس الذي نطقها به الرئيس ، جعل مدير المخابرات يشد قامته ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. بالتأكيد .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وحملت شفتاه ابتسامة رصينة هادئة ، وهو يقول :

- وعلى أي حال ، وأيًا كان ما سيثبته الأمريكيون ، فرجل مثل (أدهم صبري) لايمكن أن يموت .

ابتسم مدير المخابرات بدوره ، وهو يوافقه ، قائلاً :

- نعم ياسيادة الرئيس .. لايمكن أن يموت .

ولم يكن أحدهما مبالغًا ، في قوله هذا ..

بل كانا صادقين تمامًا ..

فـ (أدهم صبري) لايمكن أن يموت ..

هذا ؛ لأنه ليس مجرَّد شخص عادي ، في مجرى الزمن .

إنه أسطورة ..

أسطورة عربية خالصة ، ستحمل دومًا ، وإلى الأبد ، اسمًا فريدًا ، في عالم الأساطير ..

اسم الرجل ..

رجل المستحيل ..

* * *

تمت بحمد الله



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

150

النهاية

- ما الذى ستسفر عنه الجولة الأخيرة من صراع (أدهم صبرى) مع الزعيمة الغامضة ؟!
- ما الهوية الحقيقية للزعيمة الغامضة ، وكيف ستنفذ خطتها فى مرحلتها النهائية ؟!
- ترى كيف تنتهى المواجهة الأخيرة ، وكيف تكون (النهاية) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك ، فى آخر معارك .. (رجل المستحيل) .





